الإعادة بمدارس مصر المملوكية

إعـــداد

د/ محمد أحمد محمد أحمد الكردوسي
مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
جامعة أسيوط

توطئة:

أفرد بعض المؤرخين والباحثين كتبًا ومقالات عن الحياة العلمية وعن المدارس وتطورها في العصور الإسلامية المختلفة، وعند مطالعتي لمثل هذه الكتب والمقالات استرعى انتباهي عدم تركيزها على وظيفة الإعادة بالمدارس ـ الكُليّات الجامعية في عصرنا الحالي ـ على الرغم من أهمية هذه الوظيفة في العملية التعليمية، فضلا عن كونها نظاما حضاريا يرجع إلى أصول إسلامية، ومع هذا لم يُخصص لها على حد علمي بحث قائم بذاته، وكل ما ورد عنها بالكتابات القديمة والحديثة عبارة عن إشارات مقتضبة، وإن كانت من بينها صفحات معدودات جاءت في أغلبها متضمنة أمثلة لأشهر المعيدين من حيث أسماؤهم وأنسابهم دونما تركيز على طبيعة عمل المعيد أو نظام الإعادة نفسه.

والحق أن العذر مُلتَمَس لهؤلاء المؤرخين والباحثين، فالمعلومات الواردة بالمصادر عن نظام الإعادة بالمدارس شحيحة للغاية، وذاك أمر يصاحبه دوما قلق وتخوف عند الإقدام على الكتابة في مثل هذا الموضوع.

من أجل ذلك جال بخاطري تتبع المعلومات الشاردة والواردة بالمصادر بخصوص موضوع الإعادة بالمدارس، ولما استيقنت أنها كافية للطرح العلمي، رأيت أن خير نموذج يتجلى من خلاله وضوح الإعادة بالمدارس الإسلامية هو الإعادة بمدارس مصر المملوكية التي أضحت منبع العلم ومحور النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي كله، شرقه وغربه، نتيجة ازدهار الحركة العلمية في العصر المملوكي بشكل منقطع النظير، فضلا عن أن كُتّاب العصر المملوكي ألمحوا وسط كتاباتهم بإشارات عن عمل المعيدين وعن رواتبهم وعن وظائفِ شغلوها بجانب

الإعادة، وغير ذلك من الأمور التي جاءت مُحفِّزة لطرح هذا الموضوع للبحث والدراسة، وعضّد من ذلك ما وقعت عليه عيناي في ثنايا وثائق الوقف من معلومات تخص المعيدين وأعدادهم ومخصصاتهم المالية وما كانوا يؤدونه من أعمال داخل المدارس في العصر المملوكي.

وعلى أية حال، أحسب أن موضوع "الإعادة بمدارس مصر المملوكية" جدير بالاهتمام والدراسة، فهو إطلالة حضارية تعكس لنا تقدم نظم التعليم في مصر المملوكية بصفة خاصة، ونظم التعليم الإسلامية بصفة عامة. وتُوقفنا على أبعاد وظيفة الإعادة في مصر المملوكية والنظر إليها بنظرة شمولية داخل إطار بحثي واحد يغطي كافة جوانبها ـ بقدر المستطاع ـ بوصفها كيان وظيفي ضمن الكيانات الوظيفية في العصور الإسلامية.

أما عن خطة البحث ومحتوياته العامة، فقد اقتضت طبيعة الموضوع إعطاء لمحة تاريخية عن فكرة الإعادة ونشأة وظيفة المعيد في المدارس الإسلامية، ثم تتبعنا بدايات ظهورها في مصر، ثم عرجنا بالحديث إلى الإعادة بمدارس مصر المملوكية، وجاء ذلك متضمنا: أسس اختيار المعيدين، وتوليتهم، وتحديد أعدادهم، وإقامتهم بالمدارس، ودورهم في إثراء الحياة العلمية عن طريق تأديتهم مهام الإعادة بمجالس التدريس، والإعادة بأكثر من مدرسة، وجمع بعضهم بين مهام التدريس والإعادة وسد العجز في المدرسين أحيانا، ومساهمتهم في حركة التصنيف والتأليف، ثم تناولنا رواتب ومنح المعيدين، وشغلْ بعضهم وظائف أخرى بجانب الإعادة، وفي الختام تطرقنا إلى عزلهم وتنازل بعضهم عن الإعادة وأسباب ذلك، والمناصب التي شغلوها بعد الانتهاء من الإعادة.

والله من وراء القصد

د. محمد أحمد الكردوسي

فكرة الإعادة ونشأة وظيفة المعيد

الإعادة هي ذكر الشيء ثانيا وقد يُراد ذكره مرة أخرى[١]، ويوضح لنا ابن تيمية[٢] معناها بقوله: لفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد، سواء في ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها، ويقال للرجل: أعد كلامك، وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه، ويعيد الدرس، فالكلام هو الكلام وإن كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته، ولا يطلق القول عليه أنه مثله...فإن فعل مثل فعلْ غيره لا يقال: أعاده، وإنما يقال: حاكاه وشابهه، بخلاف ما إذا أعاد فعلاً ثانيًا مثل ما فعلَ أولاً، فإنه يقال: أعاد فعله. وكذلك لمن أعاد كلام غيره: قد أعاده. ولا يقال لمن أنشأ مثله: قد أعاده. ويقال قرئ على هذا، وأعاد على هذا، وهذا يقرأ، أي: يدرس، وهذا يعيد. ولو كان كلامًا آخر بما يماثله، لم يُقل فيه يعيد ... ويُقال لمن هدم دارًا: أعِدْها كما كانت، بخلاف من أنشأ أخرى مثلها، فإنه لا يسمى معيدًا.

وفكرة الإعادة في نظام التعليم ذات أصول إسلامية لم يقتبسها المسلمون من أحد، وبنيت في الأساس على وجود شخص يعيد الدرس الذي ألقاه المدرس على الطلبة ليذكرهم به ويفهَمُوه ويُحسنُوه[٣]، وقد عُرف مبدأ إعادة الدرس وشرحه من قِبل شخص آخر غير المدرس عند المسلمين منذ وقت مبكر في صدر الإسلام، بل إن الإعادة كانت معروفة

---

(١) الكفوي: كتاب الكليّات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٨م، ج١ ص١٤٥.

(٢) مجموعة الفتاوى، ج١٧، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء بالمنصورة، مصر ٢٠٠٥م، ص١٤١، ١٤٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤، ٢٠٠٥م، ج٥ ص٤٦٤.

منذ العهد النبوي، حيث كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم بعد قيامه، فيجمع الناس ويذكرهم ويفقههم فيما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ويشرحه لهم. وهذا تماماً ما يفعله المعيد في النظام الجامعي الحديث، لكن تسمية هذا الشخص باسم "المعيد" تأخر ظهورها عدة قرون، وهي على كل حال معروفة لدى المسلمين منذ عهد طويل(١).

والراجح أن ظهورها ارتبط بنشأة المدارس، إذ لم نعثر على أية إشارات بالمصادر التي بين أيدينا عن هذا المسمى الوظيفي ضمن القائمين على أمر التعليم بالمساجد أو بالأربطة والزوايا ودور الحديث قبل نشأة المدارس، وعندما نقول ذلك لابد أن نضع في الاعتبار تعريف المدرسة بمعنى الكلمة، على أنها المكان الذي يُتخذ لتلقي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد، وأن يكون مُلحقا به مكان لسكن المدرسين والطلاب مع وجود معاليم (مرتبات) وجرايات دارة عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها، وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء، لا من قاعات التدريس والمدرسين(٢).

---

(١) طرفة عبد العزيز العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٩٩.

(٢) أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" الذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية" التي عُقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص٩٩.

وارتباط وظيفة المعيد بالمدارس نتج ـ في اعتقادي ـ من كونها مستمدة من وظيفة أخرى موجودة من قبل، وشبيهة بها إلى حد كبير، وهي وظيفة المُستملي[1] الذي يكاد وجوده ينحصر في مجالس الحديث[2]، وكانت مهمته الأساسية مساعدة المُملي (الشيخ أو المحدّث) في إيصال صوته إلى الطلبة عن طريق ترديد ما يُمليه عليهم ليكتبوه، وإذا لم يسمع الطالب "حرفا سأله عن ذلك حتى يُسْمِعه، وإذا شك في شيء راجعه حتى يستثبته فيجيبه"[3]، وعمله بذلك لا يختلف كثيرا عما يؤديه المعيد، فكلاهما يساعد أستاذه في عمله ويعاونه في أداء مهمته في العملية التعليمية، لكن حسبما تقتضيه طبيعة الدرس، فالمستملي يردد ما يُمليه أستاذه في مجالس الحديث التي اعتمد التدريس فيها في المقام الأول على الإملاء، والمعيد يعيد ما يلقيه أستاذه من دروس في المدرسة ويشرحه، ولذا اقتضى الأمر مع نشأة المدارس وظهور هذه الوظيفة الجديدة أن يكون هناك مسمى يميز صاحبها عن المستملي الموجود بمجالس الحديث، فأطلق عليه "المعيد" بصفته يعيد الدرس للطلاب بالمدرسة، ومن هنا جاء ارتباطه بالمدارس، واقتصر وجوده غالبا فيها.

---

(١) للإطلاع على وظيفة المستملي ومهامه وشروط توليه وغير ذلك مما يخص تلك الوظيفة انظر، السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، نُشر في كتاب التربية والآدابية والتواصل في قطاع أهل الحديث والفقه والعبارة، وهو الكتاب رقم (٤) من سلسلة العقل العملي في التراث العربي الإسلامي، الأعلام والنصوص المُجمّعة، إشراف الدكتور على زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٣م.

(٢) طرفة عبد العزيز العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٩٨.

(٣) السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص١٨٤.

ويغلب على مظانّ بعض المؤرخين والباحثين[١] أن وظيفة المعيد ظهرت لأول مرة في المدارس النظامية التي أنشأها "نظام الملك" وزير السلطان "ملك شاه" السلجوقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ومرجعية ذلك إلى ما ورد بالمصادر عن هذه المدارس وعن التطورات التي جاءت مصحوبة بها مثل تخصيص سكن للطلاب بداخلها وصرف معاليم (مرتبات) لهم[٢]، مما جعل لها شهرة واسعة النطاق في أنحاء المشرق الإسلامي تناقلها المؤرخون، لدرجة أن بعضهم نسب أسبقية إنشاء أول مدرسة في الإسلام إلى صاحب المدارس النظامية[٣]، ومن قبيل هذا بطبيعة الحال قيل إن نشأة وظيفة المعيد جاءت ملازمة لظهور المدارس النظامية وتطورها في تلك الفترة.

---

(١) انظر على سبيل المثال، طرفة عبد العزيز العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٩٩ ــ إبراهيم بن محمد المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٧٩ ــ علي محمد الصلابي: الدولة الزنكية، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٧م، ص٣٣٤ .

(٢) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٤م، ج٤ ص٣١٤ ــ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أو (الخطط المقريزية)، مكتبة الآداب، القاهرة (د. ت)، ج٤ ص١٩٢.

(٣) ابن خلِكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت١٩٧٠، ١٩٩٤م، ج٢ ص١٢٩ ــ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ج٣٣ ص١٤٦.

والراجح أن وجود المعيد في جهاز التعليم كان قبل ذلك بكثير، وفي تصوري أنه جاء مرتبطا بنشأة المدارس الإسلامية التي كان في طليعتها مدارس نيسابور[1] التي حظيت بالظهور والانتشار قبل غيرها من مدارس الدولة الإسلامية مع بدايات القرن الخامس الهجري[2]/الحادي عشر الميلادي، أي قبل ظهور المدارس النظامية بأكثر من نصف قرن، حيث يرجع تاريخ أول مدرسة أنشأها نظام الملك، وهي نظامية بغداد، إلى سنة ٤٥٩هـ[3]/١٠٦٧م.

وليس أدل على وجود المعيد في جهاز التعليم قبل ظهور المدارس النظامية من أن أبا اسحق الشيرازي مدرس نظامية بغداد الذي طلب منه نظام الملك القيام بالتدريس في هذه المدرسة عند افتتاحها سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م كان يعمل معيدا من قبل في حلقة القاضي أبي الطيب

---

(١) نيسابور: إحدى مدن خراسان الشهيرة، وسميت بهذا الاسم لأن سابور ذا الأكتاف أحد ملوك الفرس لمّا وصل إلى مكانها أعجبه، وكان مَقْصَبة، فقال: يصلح أن يكون هنا مدينة، وأمر بقطع القصب، وبنى المدينة، فقيل لها نيسابور. والني: القصب بالعجمي (ابن خِلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص٨٠).

(٢) يقول المقريزي: "والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأوّل من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبُني بها المدرسة السعيدية..." (الخطط، ج٤ ص١٩٢).

(٣) ابن خِلكان: وفيات الأعيان، ج٢ ص١٢٩ ــ المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص١٩٢.

الطبري[1] ببغداد، منذ سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م ـ وهي سنة انتقاله إلى بغداد[2] ـ أو بعدها بقليل، حتى صار مدرسا سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، بعدما أجاز له أستاذه التدريس في حلقات خاصة به[3].

ولعل المعيد ظهر في حلقة القاضي أبي الطيب الطبري في بغداد في تلك الفترة بتأثير ارتباطه بنيسابور، إذ تلقى بها كثيرًا من علمه قبل رحيله إلى بغداد[4]، ولاشك أن علاقته بأساتذته وزملائه في نيسابور استمرت بعد ذلك، فلمّا ظهرت المدارس بنيسابور وبالتالي وظيفة المعيد كان لذلك أثره في ظهور المعيد في حلقات درسه.

وعندما أنشئت المدارس النظامية ضمت بطبيعة الحال معيدين ضمن هيئاتها التعليمية، وصار هذا النظام معهودا في تلك الآونة، ثم أخذت فكرة الإعادة ووظيفة المعيد تنتشر بصورة موسعه في كافة المدارس التي

---

(١) ابن خِلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص٢٩ـ ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤ ص٢١٧. وأبو الطيب الطبري المذكور هو طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر، ولد بآمل سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م وتفقه بها وبجرجان، ثم ارتحل إلى نيسابور، وأدرك أبا الحسن الماسرجسي فصحبه أربع سنين وتفقه عليه، ثم ارتحل إلى بغداد وحضر مجلس الشيخ أبي حامد الاسفرايني، واستوطن بغداد وولي القضاء بربع الكرخ بعد موت أبي عبد الله الصيمري، ولم يزل على القضاء حتى توفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م (انظر، ابن خلكان: المصدر نفسه، ج٢ ص ٥١٢: ٥١٥).

(٢) ابن خِلكان: المصدر نفسه، ج١ ص٣١ ـ ابن السبكي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢١٧ .

(٣) ابن السبكي: المصدر نفسه، ج٥ ص١٤ .

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه، ج٢ ص٥١٤.

أنشئت في العالم الإسلامي فيما بعد على غرار المدارس النظامية التي صارت نموذجا يحتذى به في إنشاء المدارس.

إذن الحقيقة الواجب إقرارها من خلال ما سبق أن وجود المعيد في جهاز التعليم جاء مرتبطا بنشأة المدارس الإسلامية.

ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيدًا وإثباتًا تتبعنا لظهور وظيفة المعيد في مصر، إذ جاء ظهورها مرتبطا بنشأة المدارس فيها مع بدايات العقد الرابع من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في العصر الفاطمي، وكان في طليعتها مدرستان سنيتان تأسستا بالإسكندرية، أولاهما المدرسة الحافظية[1] التي أنشأها رضوان بن ولخشي ـ وزير الخليفة الحافظ لدين الله ـ سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م، أما الثانية فهي المدرسة العادلية التي أنشأها العادل بن السلار سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م عندما كان واليا على الإسكندرية ـ قبل أن يلي الوزارة ـ وهي التي عرفت أيضا بالمدرسة السلفية نسبة إلى الحافظ السلفي مُدرسها[2].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠ص٤٥٨، ٤٥٩ ـ جمال الدين الشيال: أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، مقال منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد (١١)، ١٩٥٧م، ص ١٣ وأعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠١م، ص١٢١ ـ أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص١١٦، ١١٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣ ص٤١٧ ـ جمال الدين الشيال: أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، ص١٤ وأعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص١٣٧ ـ Lane Poole (S.): A history of Egypt in the middle ages, London 1924, p.188.

والمتتبع للمعلومات الواردة بالمصادر لا يلمح إشارات من قريب أو من بعيد إلى وجود معيدين في مصر قبل نشأة المدرستين المذكورتين. بينما نراها بعد نشأتيهما، وإن كانت المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا في العثور على أسماء معيدين في المدرسة الأولى منهما، فقد أمدتنا بمعلومات تؤكد وجود معيدين في المدرسة الثانية التي بُنيت بعد الأولى باثنتي عشرة سنة فقط، وقد أشار الحافظ أبو طاهر السلفي نفسه إلى واحد من هؤلاء المعيدين وترجم له في كتابه "معجم السفر"(١)، وهو أبو المعالي رافع بن يوسف بن زيدون القيسي، الذي كان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان بتلك المدرسة ويؤم الناس في الصلوات الخمس بها، ووصفه السلفي بأنه كان من أهل العلم ثم قال عنه: "وقد لازمني عند بناء المدرسة العادلية مدة مديدة إلى أن توفي"، ومعنى هذا أنه ظل يعيد عنده نحو سبع سنوات، منذ بنيت المدرسة العادلية سنة ٤٤٤هـ/١١٤٩م إلى أن توفى سنة ٥٥١هـ(٢)/١١٥٦م.

ومن هنا يمكن القول دون تردد إن وظيفة المعيد ظهرت في نظام التعليم المصري مع نشأة المدارس في العصر الفاطمي، وفي هذا دلالة واضحة على اقتران ظهور المعيدين في مصر بنشأة المدارس فيها، والتي أنشئت في الأصل للدعوة للمذهب السني، وجاءت متأثرة في ذلك بالمدارس التي أنشأها الأتابكة في العراق والشام على غرار مدارس سادتهم سلاطين السلاجقة، فعندما أنشأ ابن السلار مدرسته المذكورة

---

(١) تحقيق عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، (د.ت)، ص٩٠، ٩١.

(٢) أبو طاهر السلفي: معجم السفر، ص٩١ ـ جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص١٤١.

آنفًا ــ مثلا ــ أنشأها لتدريس المذهب الشافعي[١]، ولعله كان متأثرا في ذلك بنور الدين محمود بن زنكي، حيث كان سنيًا شافعيًا مثله، وكان على اتصال سياسي به[٢].

وعلى أية حال، فبعد ذلك بات أمرًا طبيعيا وميسورًا أن تضم المدارس في مصر في العصور اللاحقة معيدين ضمن هيئاتها التعليمية. ففي العصر الأيوبي صارت وظيفة المعيد من الوظائف المرموقة، بحيث قَلّ أن خلت مدرسة من مدارس ذلك العصر من تلك الوظيفة [٣]، ولحسن الحظ ورد ببعض المصادر والمراجع معلومات يُتبين منها ذلك، فعلى سبيل المثال ضمت المدرسة الناصرية الأولى[٤]

---

(١) ابن خِلكان: وفيات الأعيان، ج٣ ص٤١٧ ــ

Lane Poole (S.):A history of Egypt in the middle ages, P. 188.

(٢) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية، ص١٣٨.

(٣) عفاف سيد محمد صبره: المدارس في العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" والذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية" التي عُقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٨١.

(٤) هذه المدرسة أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب برسم الفقهاء الشافعية، بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بمدينة الفسطاط، أول المحرم سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م وقت وزارته للخليفة العاضد الفاطمي، وعرفت أوّلا بالمدرسة الناصرية، ثم عرفت بابن زين التُّجار، وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقيّ، المعروف بابن زين التُّجار، أحد أعيان الشافعية. وهو أول من وُلي التدريس بها، ودرّس بها مدّة طويلة، ومات في ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٣) .

(أو الشريفية[1]) معيدين ضمن هيئتها التعليمية، وكانوا يلقون احتراما وافرا من الطلاب فيها، فهذا أبو الطاهر المَحَلّي[2] لمّا قدم مصر وأراد أن يلتحق بتلك المدرسة كواحد من طلابها ولم يجد بها مسكنا له، أخذ يتودد ويتقرب للمعيد بها عسى أن ينفعه في ذلك[3]، ويفهم ذلك مما كتبه ابن السبكي[4] عن أبي الطاهر، إذ يقول: "إن الفقيه أبا الطاهر قصد مصر

---

(١) Lane Poole (S): A history of Egypt in the middle ages, P.204.
يقول المقريزي: إنها عرفت بالمدرسة الشريفية، نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفيّ قاضي العسكر الأرموي، وقيل لها المدرسة الشريفية من عهده إلى اليوم. (الخطط، ج٤ ص١٩٣). وأورد في موضع آخر أنها عرفت بالشريفية نسبة إلى السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد الحنفيّ قاضي العسكر ــ والد المذكور آنفا ــ والذي درّس بها وتوفي في شوّال سنة خمس وخمسين وستمائة. (المصدر نفسه، ج٤ ص٨٧).

(٢) هو محمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأنصاريّ، أصله من الْمَحَلَّة (إحدى مدن الغربية) ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة تقريبا، وقدم إلى مصر وتفقه بها، ومن مشايخه ابن زين التُّجار، وُلي خطابة جامع مصر العتيق سنة ثلاث عشرة وستمِائة، وتُوفي فِي ذِي القعدَة سنة ثلاث وثلاثينَ وستمائة بِمصر (ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص٤٨ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ١٩٧٩م، ج٢ ص١٠٦، ١٠٧ ــ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج١ ص٣٠٥).

(٣) أيمن شاهين سلام: المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا ١٩٩٩م، ص١٤٩.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص٥٠ ــ أيمن شاهين سلام: الرسالة نفسها، ص١٤٩، ١٥٠.

للاشتغال وكان على حالة من القلة، ونزل المدرسة الصلاحية المجاورة للجامع العتيق ولم يحصل له بيت، بل خزانة يضع فيها كتابه وثوبه وكوزا وإبريقا وكان معه شيء من العنبر، قال: فكنت أبخر ذلك الكوز وإذا جاء المعيد والتمس ماء أتيته بذلك الكوز تقربا إليه وخدمة له".

كما عَيّن السلطان صلاح الدين مُعيدِين بالمدرسة الناصرية الثانية التي بناها بالقرافة بجوار قبة الإمام الشافعي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وفي هذا يقول المقريزي[١]: "وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة .... وولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان، ثم خلت من مدرّس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة أنفس، فلمّا كانت سنة ثمان وسبعين وستمائة وُلي تدريسها قاضي القضاة تقيّ الدين محمد بن رزين الحمويّ بعد عزله من وظيفة القضاء".

كذلك ضمت المدرسة الصالحية[٢] ثمانية معيدين لأربعة مدرسين يدرسون المذاهب الفقهية الأربعة بها، لكل مدرس منهم معيدان[٣]. وهكذا لو ذهبنا نبحث عن وجود معيدين بمدارس مصر زمن الأيوبيين لوجدنا أمثلة عديدة على ذلك، لكن ليس هذا موضع بسط تلك المسألة.

ومنذ العصر المملوكي تطورت وظيفة المعيد تطورات ملموسة نتيجة اهتمام سلاطين المماليك بالتعليم وازدهار الحركة التعليمية في عصرهم،

---

(١) الخطط، ج٤ ص٢٥١ ــ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ج٢ ص٢٢٥.

(٢) هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ورتب فيها دروسا للفقهاء المنتمين للمذاهب الأربعة، في سنة إحدى وأربعين وستمائة، وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة في مكان (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٠٩).

(٣) المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢١٠.

وقد وقفنا على كثير من النصوص والتراجم لبعض من شغلوا تلك الوظيفة في ذلك العصر، ونحاول هنا من خلالها ومن خلال الإشارات الواردة بالمصادر المختلفة عن عمل المعيدين ورواتبهم وغير ذلك، رسم صورة متكاملة بقدر المستطاع عن الإعادة بمدارس مصر المملوكية:

أولاً: أسس اختيار المعيدين والشروط الواجب توفرها فيهم

كان المعيد في نظام التعليم المملوكي ــ وما زال ــ همزة الوصل بين الطلبة والشيخ (المدرس). وهو دور يقتضي بطبيعة الحال توفر شروط قاسية في المرشح للقيام بهذه المهمة[١]، ويمكن استخلاص تلك الشروط من وثائق الوقف للمنشآت الدينية المملوكية، فهذه الوثائق تضمنت الشروط التي يجب توفرها في كل موظف يُقرر بها، وكانت بمثابة اللوائح التنظيمية التي يعمل بمقتضاها داخل هذه المنشآت، ولا يجوز مخالفتها على الإطلاق، وفي ضوء ما ورد بها من شروط يتم اختيار الموظفين دون النظر لأي اعتبارات أخرى[٢].

ومن منطلق اتفاق الشروط الواردة بهذه الوثائق في وجوبية تحلي المدرس بالعلم والدين كشرط أساسي[٣]، فليس ثمة شك أن هذا الشرط كان أساسيا أيضا لاختيار المعيد، لاسيما أن التقاليد التي كانت تحكم وظائف المعيد أو المساعد، وطريقة عمله، هي عينها التقاليد والطريقة التي يختص بها الأستاذ[٤]، والمعيد

---

(١) السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص٤٩.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٢٠.

(٣) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه، ص١٢٠.

(٤) السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص٤٩.

يتبع مُدرسه، وسيصير هو بدوره مُدرسا فيما بعد، فيراعى عند اختياره المستوى العلمي المتقدم وكثرة التحصيل والاطلاع ورجاحة العقل[١]، فالمعيد من الرجال: العالم بالأمور الذي ليس بِغُمُر، وهو الحاذق المجرِّب[٢].

وإلى جانب المستوى العلمي المتقدم كان يُراعى عند اختيار المعيد، المستوى الديني والخُلقي، وعبَّر ابن جماعة[٣] عن ذلك بعبارة موجزة بليغة قال فيها: إن كان للمدرس "معيد فليكن من صُلحاء الفضلاء، وفضلاء الصُلحاء". وهذا معناه أن قواعد الأخلاق كانت الأساس الذي في ضوئه يتم اختيار معيد.

وإذا عرفنا ما كان يجب أن يتحلى به طلاب العلم آنذاك من الدين والخُلق القويم، وقفنا على مدى ما كان يجب توفره في المعيد في هذا الخصوص، لاسيما وأن المعيد في مدارس مصر المملوكية كان يعتبر من جملة الطلاب أو (الفقهاء

---

(١) يتضح ذلك من خلال تتبع سير بعض المعيدين الواردة في مصادر العصر المملوكي. انظر مثلا، الأُدفوي: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م، ص٤١٤ ــ ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٩ ص١٤٧ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٨٥، ١٨٦ــ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت ١٩٩٣م، ج٤ ص٢١١ ــ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م، ج٧ ص٢٩٣.

(٢) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العزيز مطر، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٩٤م، ج٨ ص٤٤٥.

(٣) تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم في أَدَب العَالِم والمُتَعَلِّم، تحقيق عبد السلام عمر عليّ الجزائري، مكتبة ابن عباس، سمنود، مصر ٢٠٠٥م، ص٢٥٩.

والمتفقهة[١])، حتى إن بعض الوثائق أطلقت عليه "نقيب الطلبة"[٢]، أو كما يقول الدكتور محمد محمد أمين[٣]: لم يكن المعيد في تلك العصور سوى طالب علم متقدم.

ويمكن التعرف على ما كان يجب توفره في طلاب العلم من التزام ديني وخُلقي آنذاك مما أورده لنا ابن جماعة[٤] عن آداب الطالب، ومُجملها: أن يكون طالب العلم نقي السريرة، خالص الإيمان، طيب الأخلاق، ملتزما بتعاليم الدين الإسلامي، يطلب العلم استكمالا لدينه، وأن يلزم شيخه الذي يتلقى العلم على يديه، ويعمل وفق نصائحه ومشورته، ويحرص دائما على رضاه، وأن يكون حريصا على تقديره وتبجيله واحترامه بما يتناسب مع مكانته كشيخ علم قدير، وأن يتذكر دوما فضل مُعلمه عليه فيراعي أن يحفظ كل ما له من حقوق، وأن يغفر لشيخه ما قد يأتيه من هفوات أو عيوب رغبة في استمرار الود بينهما والعلاقة الطيبة، وأن يشكر لشيخه معاملته له سواء كان ثناء على عمل مفيد أو توبيخ على نقيصة اقترفها بل يكون ممتنا لما يحصل منه، وألا يدخل على شيخه إلا بإذن،

---

(١) السبكي: فتاوى السبكي، درا المعرفة، بيروت، لبنان (د. ت)، ج٢ ص١٢٥.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم علي: من الوثائق العربية في العصور الوسطى، نصان جديدان (بقية) من وثيقة الأمير صرغتمش (التعليقات العلمية والمصادر)، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٨، الجزءان الأول والثاني، مايو، ديسمبر١٩٦٦م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١م، ص١٦٠.

(٣) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ـ٩٢٣هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م "دراسة تاريخية وثائقية"، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠، ص٢٤٥.

(٤) تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص١٦٧: ٢١٤ ـ حياة ناصر الحجي: صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ١٩٩٢م، ص١٨٢، ١٨٣.

وألا يبدأ الحديث، وينصت لكلامه بوعي وهدوء، وأن يكون في جلوسه مع شيخه متواضعا متأدبا، وإذا أراد أن يستفسر عن شيء أجّل ذلك لنهاية الدرس دون مقاطعة في منتصف الحديث، وإذا أعاد شيخه شيئاً سبق ذكره، أو شرح جزءا كان يعرفه، أو ذكر حديثا يحفظه فيجب ألا يقاطعه بأنه ملهم بهذا أو ذاك، بل يسمع فربما جاء الشيخ علاوة على ذلك بشيء جديد في الشرح أو التفسير، وإذا استفسر أحد الطلبة من الشيخ حول موضوع ما وكان يعرف الجواب فينبغي ألا يسابق شيخه على الإجابة بل لا يتدخل إطلاقا إلا إذا بادر الشيخ بالسؤال.

وهذه الصفات التي قدمها لنا ابن جماعة في صورة نصائح، توضح الأنموذج المثالي من الأخلاق العالية والصفات المثالية التي يجب أن يتحلى بها الطالب سواء في نفسه أو في علاقته بأستاذه أو بمسلكه أثناء الدرس(١)، وهي صفات من الأحرى بالمعيد أن يكون قد تحلى بها بوصفه أنموذجا مثاليا لطلاب العلم في تلك العصور. ذلك فضلا عن توفر شروط أو صفات أخرى تميزه عن أقرانه وتجعله مؤهلا للعمل في وظيفة معيد، كأن يكون "صبورًا على أخلاق الطلبة حريصًا على فائدتهم وانتفاعهم به قائمًا على وظيفة أشغالهم"(٢)، أو بمعنى آخر يكون لديه الاستعداد التام لتقديم كل ما من شأنه أن يفيد الطلاب وينفعهم دونما كلل أو ملل، وذلك الأمر في غاية الأهمية، لأن وظيفة المعيد مبنية في الأساس على تكرار ما يلقيه المدرس لينتفع به الطلاب ويفهموه جيدا، مما يستوجب منه الصبر على تكرار المعلومة وعدم الملل من تكرارها للطلاب حتى

(١) حياة ناصر الحجي: صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ص١٨٣.

(٢) ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٥٩.

يفهموها، وإن كررها لهم عدة مرات، ولذا يقول الزبيدي[1]: إن المعيد هو المطيق للشيء يعاوده، وهو معيد لهذا الشيء أي مطيق له لأنه قد اعتاده.

ويلزم المعيد مع الصبر على أداء عمله أيضا التواضع والمعاملة الحسنة للطلاب ولكل الناس المحيطين به، داخل المدرسة وخارجها، ونستوحي ذلك الشرط مما ورد بالمصادر بخصوص محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد الشيخ تاج الدين المراكشي (ت٧٥٢هـ/١٣٥١م) الذي وُلى الإعادة بقبة الشافعي في القاهرة ثم أُخرج منها إلى دمشق في أواخر سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ـ تقريبا ـ على يد قاضي القضاة جلال الدين القزويني بعد مشاورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أمره، وذلك لأنه كان ضيق الخلق لا يحابي أحدا ولا يتحاشاه وكان عجولا محتقرا للناس كثير الوقيعة فيهم، هذا مع أنه كان فقيها نحويا متفننا، مواظبا على طلب العلم جميع نهاره وغالب ليله، يستفرغ فيه قواه ويدع من أجله طعامه وشرابه[2].

وفي الإطار ذاته نقرأ عن نجم الدين عبد الجليل الرّويسوني الحنبلي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) الذي أعاد بالقبة البيبرسية وكان حسن الأخلاق متواضعا[3].

---

(١) تاج العروس، ج٨ ص٤٤٤.

(٢) الإسنوي: طبقات الشافعية، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ج٢ ص٢٦٠، ٢٦١ ـ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص٦٢، ٦٣ ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩١ـ ١٩٩٣م، ج٨ ص٢٩٥.

(٣) ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج٨ ص٣٦٣.

وإلى جانب ما سبق من شروط أساسية أو عامة، وجدت شروط أخرى إضافية أو تفصيلية اختلفت من مدرسة إلى أخرى تبعًا لما كان يشترطه مؤسسو المدارس أو الواقفون فيمن يشغل هذه الوظيفة، كتحديد المذهب والتخصص وغير ذلك من الأمور، وهذه الشروط الإضافية كالشروط الأساسية تماما لا يجوز مخالفتها على الإطلاق وتنفذ كما وردت في وثيقة الوقف الخاصة بالمنشأة التعليمية.

وليس ثمة شك أن اشتراط أو تحديد المذهب والتخصص بالنسبة للمعيدين أمر اقتضاه ذلك التنوع في طبيعة المدارس المملوكية في تلك الآونة، فقد اختص بعضها بتدريس مذهب معين وبعضها بتدريس المذاهب، وتقرر بالبعض الآخر تدريس الحديث والقراءات وغيرها من العلوم[1] الدينية كالفقه التفسير، إلى جانب العلوم اللغوية كالنحو والصرف، فضلا عن العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق، والعلوم العملية كالرياضيات والطب[2]. ولذا نرى مؤسسو المدارس أو الواقفون يُضمّنون وثائق وقفهم تحديد المذهب والتخصص للمعيد، والذي كان بطبيعة الحال يتبع فيهما شيخه (مُدرسه)[3]، والأمثلة على ذلك كثيرة منها مثلا ما

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٠.

(٢) Manjikian (Sevak Joseph): Education and Training Under the Mamluks, Institute of Islamic Studies McGill University, Montreal, Quebec, (National Library of Canada) 1998, p.55 – Ibrahim (Mahmood): "Practice and Reform in Fourteenth-Century Damascene Madrasahs", in Mamlūk Studies Review, VOL. 11, NO. 1, (2007). P. 72.

(٣) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٤٥.

نصت عليه وثيقة وقف المدرسة الصرغتمشية[1] من أن "النـاظر في هذا الوقف يرتب شخصا من الفقهاء الحنفية ... يكون مُدرسا بالمدرسة المذكورة ويرتب معه من الفقهاء الحنفية ثلاثة معيدين يكون في كل منهم أهلية الاشتغال بمذهبه"[2].

وفي بعض المدارس كانت الجنسية إحدى الشروط الإضافية التي يتم في ضوئها اختيار المعيدين، ففي المدرسة الخروبية التي أنشأها بدر الدين محمد بن محمد بن عليّ الخروبيّ التاجر، بعد سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، اشترط أن لا يلي بها أحد من العجم وظيفة من الوظائف (ومن بينها وظيفة المعيد)، فقال في كل وظيفة منها: "ويكون من العرب دون العجم"[3].

وفي مدارس أخرى لم يكن هذا الشرط مهما، فالمطلع على ما ورد بالمصادر يصادف في ثناياها من شغلوا وظيفة معيد في بعض المدارس وهم من العجم، مثل محمد بن أبي محمد الشافعي (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الذي قدم من بلاد العجم إلى

---

(١) هذه المدرسة أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م، وصرغتمش المذكور كان أحد مماليك الناصر محمد، وترقى في المناصب والخدم السلطانية حتى صار نافذ الكلمة، وانفرد بتدبير أمور المملكة في عهد السلطان حسن، حتى وفاته سنة٧٥٩هـ/١٣٥٨م (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٥٨:٢٥٦).

(٢) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي تحت عنوان: نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ديسمبر ١٩٦٥م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٩م، ص١٤٧.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٠٢ ـ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٠.

القاهرة وأخذ العلم عن مشايخها ودَرَّس ببعض مدارسها وأعاد تدريس الشافعي[1]، ومنهم أيضا معيدون بالمدرسة المنصورية[2]، ويفهم ذلك مما أورده ابن حجر العسقلاني[3] عند حديثه عن حرمي بن سليمان البيائي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) الذي ولي الإعادة بالمنصورية بعد تنازل بعض العجم له عنها، وفي ذلك يقول الشاعر:

قالوا تولَّى البيائي مع جَهَالته ... وكان أجهلَ منهُ النَّازِلُ العَجَمي
فأنشدَ الجَهْلُ بيتًا لستُ أُنكِرُه ... ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلَّا إلى حَرَمي

ومن الشروط الإضافية الأخرى والاستثنائية التي وضعها بعض الواقفين عند اختيار المعيدين إجادة التحدث بأكثر من لغة، وإن كان هذا الشرط لم يرد صراحة في وثائق الوقف أو في المصادر التي بين أيدينا، غير أنه يمكن استنتاجه من اشتراط أحد الواقفين في مُدرِّسَيّ مدرسته أن يكونا عَالمَين بالعلوم العربية ومشكلاتها، مُتكلمَين باللسان العربي والعجمي والتركي، وإلا فباللسان العربي وأحد اللسانين المَذكورَين[4]. وذلك بحكم تبعية المعيد لأستاذه، وإلا كيف يعيد عن أستاذه ما يشرحه بلغة يجهلها.

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصوريّ بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هي والقبة التي تجاهها والمارستان، الملك المنصور قلاوون الألفيّ الصالحيّ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢١٨).

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤، ١٩٩٨م، ج٢ ص ٣٠٤ ــ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د. ت)، ج٣ ص٨٩.

(٤) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه، ص١٢٠، ٤٧٥.

وجدير بالذكر، أن هناك معيدين شغلوا وظيفة الإعادة في العصر المملوكي وكانوا مكفوفي البصر، الأمر الذي يشير إلى أن الإبصار ليس من بين الشروط التي في ضوئها يتمّ اختيار المعيدين، ولا غرابة في ذلك، لأن التعليم كان يرتكز بالمدارس آنذاك بصفة رئيسية على الدراسات النظرية، فلم يحلْ العمى دون اختيار طلاب مكفوفين ليشغلوا وظائف الإعادة بالمدارس، ما دام التفوق العلمي والخلقي يصاحبهم، ومن هؤلاء المعيدين نذكر: علم الدين القمني الضرير[1] الذي ولي الإعادة بالظاهرية بالقاهرة، وكان له فضل ومشاركة في الفقه والنحو والأصول، وكان في الحفظ آية، يحفظ السطور الكثيرة والأبيات من سماعها مرة واحدة[2]. ومنهم أيضا تاج الدين المراكشي الذي أعاد بقبة الشافعي وكان ضريراً (ضعيف النظر مقاربا للعمى) لا يفتر عن طلب العلم إلا إذا لم يجد من يطالع له[3]. وهناك لؤلؤ بن أحمد بن عبد الله أبو الدر الدمشقي المقرئ

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن جعفر بن أحمد بن هشام بن يوسف، الشيخ علم الدين الأموي البهنسي القمني، الفقيه المفتي الضرير، توفي بالقاهرة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م (الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ج٦ص ١٣٧) .

(٢) الصفدي: المصدر نفسه، ج٦ص ١٣٧ ــ أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ج١ ص٢٠٩، ٢١٠.

(٣) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، لبنان، ج١ ص١٦ ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٢٩٥.

الفقيه الحنفي النحوي الضرير(ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، الذي ولي الإعادة بالمدرسة السيوفية بالقاهرة[١].

كذلك لم تمنع الإعاقة في إحدى القدمين بعض الطلاب من شغل وظيفة الإعادة بالمدارس المملوكية، ما داموا متفوقين علميا وخلقيا، ولذا نرى عز الدين محمد بن عبد الرحمن، الفقيه الحنفي الأعرج (ت٧٣١هـ/١٣٣١م) يشغل وظيفة الإعادة بالمدرسة السيوفية[٢].

وقبل أن نطوي الحديث عن شروط اختيار المعيدين في مدارس مصر في ذلك العصر، لابد أن نتساءل عمّا إذا كان يُشترط فيمن يشغل وظيفة الإعادة سن معين أو عمر محدد ؟

ومن خلال مراجعة المعلومات الواردة بالمصادر تبين أن تحديد السن أو العمر لم يكن من بين الشروط المطلوبة لتولي الإعادة بمدارس مصر في العصر المملوكي، فقد شغلها الشباب الصغار والشيوخ الكبار على حد سواء، ومن الذين شغلوها في شبابهم عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الواحد المعروف بابن النقاش (ت ٨١٩هـ/١٤١٦م)، الذي شغلها في سن مبكرة من شبابه حتى إن السخاوي[٣] يقول: "ذكره العثماني

(١) السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٧٠. والمدرسة السيوفية المذكورة تعد ثالث مدرسة أنشأها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد الناصرية الأولى والقمحية، وكانت من جملة دار الوزير المأمون البطائحيّ، ووقفها على الحنفية، وكتاب وقفها مؤرخ بالتاسع عشر من شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وعرفت بالمدرسة السيوفية، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٢، ١٩٦).

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣ ص٤٩٩.

(٣) الضوء اللامع، ج٤ ص١٤٠، ١٤١.

قاضي صفد في آخر طبقاته فقال: شاب حسن، معيد الابناسي بمدرسة حسن، وخطيب جامع طولون، ثم ضرب عليه كأنه لصغره". ومنهم يوسف بن يوسف بن إسرائيل بن يوسف، الصالحي الحنفي، الذي باشر الإعادة بالظاهرية ومات سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤م ولم يكمل الأربعين[١].

وممن شغلوها في الكبر: عيسى بن مسعود الزواوي الذي كان مدرسا للمالكية بالزاوية التي بمصر ثم تنازل عن التدريس لولده عليّ، واستقر هو معيدا عن ولده حتى وفاته سنة ٧٤٣هـ[٢]/١٣٤٢م.

وهناك من تولاها في الصغر واستمر يشغلها حتى صار شيخا كبيرا، مثل محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدرة، المعروف بابن القمّاح (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، الذي أعاد بالمدرسة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقرافة نحوا من خمسين سنة، ثم ولي التدريس بها في أواخر عمره[٣].

وخلاصة القول إن اختيار المعيدين في مدارس مصر المملوكية كان يتمّ وفق شروط معينة يحددها مؤسسو المدارس أو الواقفون، يتمّ إدراجها في وثيقة الوقف ولا يجوز مخالفتها إطلاقا، منها ما هو عام أو أساسي تمّ العمل بمقتضاه في كافة مدارس مصر المملوكية، كالتفوق العلمي والالتزام الديني والخلقي والاستعداد التام للقيام بمهام الإعادة وإفادة الطلاب، ومنها ما كان بمثابة شروط إضافية أو تفصيلية، اختلفت من مدرسة لأخرى تبعا لما كان يراه مؤسس

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤ ص٤٨٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ج٣ ص ٢١٠، ٢١١.

(٣) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٧٣ ــ ابن قاضى شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص٦٦، ٦٧ ــ ابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ج٣ ص٣٠٤ ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٢٣٠.

المدرسة أو الواقف مناسبا لهذه الوظيفة بمدرسته، بما يحقق الأهداف المرجوة منها ويدعم العملية التعليمية بها، كتحديد المذهب والتخصص والجنسية والتحدث بأكثر من لغة، وما شابه ذلك.

ثانيًا: تولية المعيدين وتحديد أعدادهم بكل مدرسة

أدى الواقفون في مصر المملوكية دورا أساسيا في تولية المعيدين وتحديد أعدادهم داخل المدارس، وكان مؤسس المدرسة أو الواقف يحرص في الغالب أن يرتب في مدرسته معيدا أو أكثر عقب إنشائها مباشرة كجزء من تأسيسها، وهو الذي يحدد ما تحتاجه تلك المدرسة من المعيدين تبعا لإرادته وحسبما يراه مناسبا لها، ولذا نلحظ تباينا واضحا في أعداد المعيدين بين مدراس مصر المملوكية، فهناك مدارس وُجد بها معيد واحد كالمدرسة الخروبية التي اكتفى مؤسسها بدر الدين الخروبيّ بتعيين الشيخ سراج الدين عمر البلقيني ليعيد دروس الفقه بها[1]، وهناك مدارس عُين بكل منها معيدان كالمدرسة المجدية الخليلية[2] ومدرسة زين التُّجار[3]، أما المدرسة الصرغتمشية فكان بها ثلاثة

(١) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٠٢.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٥٠، ٢٥١. وهذه المدرسة بمصر، يعرف موضعها بدرب البلاد، عمّرها مجد الدين أبو محمد عبد العزيز بن أمين الدين الحسين بن الحسن، الخليليّ الداريّ، وتمت في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٥٠، ٢٥١).

(٣) الأُدْفوي: الطالع السعيد، ص٧٣١ ــ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩ ص١٨٣، ١٨٤ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ حاشية ص٣٩٩، ٤٠٠ ــ ابن حجر العسقلاني:الدرر الكامنة، ج٤ص٤٨٦. وهذه المدرسة هي الناصرية الأولى أو الشريفية أو مدرسة ابن زين التُّجار كما أوردها المقريزي، وسبق تعريفها في موضع سابق من هذا البحث.

معيدين[1]، وهناك مدارس وصل عدد المعيدين فيها إلى ثمانية معيدين، كالمدرسة الصالحية[2]، وأحيانا إلى عشرة معيدين كالمدرسة الناصرية بالقرافة[3].

ولا نستبعد أن يكون مؤسسو المدارس والواقفون عند تحديدهم أعداد المعيدين في المدارس كانوا يراعون نسبة المعيدين إلى الطلاب من ناحية، ونسبة المعيدين إلى المدرسين من ناحية أخرى، وإن اختلف ذلك الأمر من مدرسة إلى أخرى. وقد تضمنت وثائق الوقف المملوكية إشارات تؤكد هذه الحقيقة، منها مثلا ما نصت عليه حجة وقف المدرسة الناصرية[4] على أن يُعين ناظر الوقف لكل مدرس من مُدرسيّ المدرسة

---

(١) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٤٧.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢١٠.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٣١ ص٩٦ ــ المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٥١ــ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٢٥.

(٤) هذه المدرسة بخط ما بين القصرين، أنشأها الناصر محمد بن قلاوون، وكان أصلها هي والقبة الشريفة دارا عرفت بالرشيدي (الأمير سيف الدين بلبان)، واشتراهما الملك العادل كتبغا المنصوري، وشرع في بنائهما، فكملت القبة، أما المدرسة فخُلع قبل أن يُتمها، فلما عاد السلطان الناصر محمد إلى السلطنة ثانيا في سنة ثمان وتسعين وستمائة اشتراها وأمر بإتمامها، فكملت في سنة ثلاث وسبعمائة، وعمل لها الأوقاف الجليلة (النويري: المصدر نفسه، ج٣٢ ص٦٢، ٦٣ ــ المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٢١، ٢٢٢). وهناك مدرستان غير هذه المدرسة كانت تعرف كل منهما بالناصرية، أنشأهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسبق التعريف بهما في موضع سابق من هذا البحث.

"من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد"[١]. ومن هذه الإشارات أيضا ما ورد بوثيقة وقف مدرسة ايتمش البجاسي[٢] من أن يكون بها مُدرسان لكل منهما معيد واحد وأربعة عشر من الطلبة[٣].

وهكذا في كل مدرسة نجد ضمن شروط وقفها تحديد دقيق لأعداد المعيدين والمدرسين والطلاب[٤] بها، فعلى سبيل المثال كان في المدرسة الصرغتمشية ثلاثة معيدين ومدرس وستون طالبا[٥]، وفي المدرسة المجدية الخليلية مدرس شافعي ومعيدان وعشرون طالبا[٦] وفي القبة المنصورية التي كانت جزءا من المارستان المنصوري مدرّس ومعيدان

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢ ص٦٩ ــ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٦١.

(٢) هو ايتمش بن عبد الله، سيف الدين البجاسيّ ثم الظاهري، كان أحد المماليك اليلبغاوية، ومدرسته المذكورة تقع خارج القاهرة، داخل باب الوزير تحت قلعة أسسها ايتمش سنة خمس وثمانين وسبعمائة. (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٥٠).

(٣) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية ، ص٤٧٥.

(٤) Al-Harithy (Howayda): "The Four Madrasahs in the Complex of Sultan Hasan (1356–61): The Complete Survey", in Mamlūk Studies Review, VOL. 11, NO. 2, (2007), Middle East Documentation Center, The University of Chicago. P. 51.

(٥) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٤٧.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٥٠، ٢٥١.

وثلاثون طالباً[1]، ونلمس من خلال تلك الأعداد معقولية النسبة والتناسب بين عدد المعيدين والمدرسين والطلاب لتحقيق الفائدة المرجوة من وظيفة الإعادة بالمدارس.

وفصل الخطاب أن الإعادة بمدارس مصر المملوكية كانت وظيفة محددة من ناحية العدد في أي مدرسة منها بحسب ما تقضي به شروط وقفها التي يضعها الواقف، والتي يراعي عند تحديدها نسبة المعيدين إلى المدرسين والطلاب، أو بمعنى آخر مراعاة العبء التدريسي للمعيدين والكثافة العددية للطلاب، ولعل هذا من الأمور التي تعكس لنا مدى وعي الواقفين وإحاطتهم بما كان يسهم بشكل أو بآخر في نهضة العملية التعليمة وتأدية المدرسة لرسالتها على أكمل وجه ممكن آنذاك.

وإلى جانب تحديد الواقف عدد المعيدين بالمدرسة كان هو الذي يختارهم ويُعينهم، لأنه كان هو الذي يعين كل الموظفين بالمدرسة، وله عزل أحدهم أو استبدال واحد منهم بغيره، وله اختصار ما يرى اختصاره من الوظائف بتلك المدرسة، كل ذلك راجع إلى رأيه ونظره متى شاء وكيف شاء[2]، وقد نصت وثائق الوقف المملوكية على مثل هذه الأمور صراحة، ففي نص الوقف الخاص بمدرسة عبد الغني الفخري ـ شارع بورسعيد ـ بالوثيقة رقم ١٢/٧٢ المؤرخة ١٨ رمضان سنة ٨٢٠هـ ورد مثلا ما نصه "وقف ذلك كله ليعين هو من ذلك ما يرى تعيينه، ممن سيقرره بالمدرسة المذكورة، من أرباب وظائف بها، من المدرسين...

(١) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٦١.

(٢) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٥٦.

ومعيدين وطلبة ... وغيرهم ممن يحتاج إليه لمصالح المدرسة المذكورة، على من يختار هو ويقتضيه رأيه ويؤدي إليه اجتهاده"[١].

وبعد وفاة الواقف كان يضطلع بأمر تعيين المعيدين في المدرسة ناظر الوقف، ويعينهم حسب الشروط المنصوص عليها في وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة شأنهم في ذلك شأن باقي أرباب الوظائف بها، وإذا كان الواقف قد عين أحدا من أرباب الوظائف (ومن بينهم المعيدين) أو عزله أو استبدل واحدا منهم بغيره، فليس للناظر بعده أن يغيره، ومتى صدر من أحد الموظفين ما يرى به الناظر صرفه فيصرفه ويرتب غيره، وإذا شغرت وظيفة ما أو أكثر من الوظائف بالمدرسة المذكورة (ومنها وظيفة الإعادة) كان للناظر أن يُولي فيها من هو أهل لها، وكل ذلك طبعا بعد وفاة الواقف المذكور[٢].

ولمّا كان نظر الوقف وغيره من الوظائف في الأوقاف الأهلية[٣] ـ مثل التدريس أو الخطابة ـ يُسند إلى القضاة بحكم مناصبهم، وحسب شروط الواقف[٤]، وجدنا سجلات تعيين بعض القضاة يُنص فيها على أن

---

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص٤٨١.

(٢) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٥٦، ١٥٧.

(٣) هي التي تجمع بين الوقف الخيري والوقف الأهلي، وهي إن كانت تخضع لإشراف قاضي القضاة الشافعية إلا أنه لكل وقف منها ناظر خاص بها حسب شرط الواقف، قد يكون من أولاد الواقف أو عتقائه أو من القضاة أو الأمراء أو الفقهاء. (محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص١٠٨، ١١٦).

(٤) محمد محمد أمين: المرجع نفسه، ص١١٨.

يتولى القاضي تعيين المدرسين والمعيدين بالمدرسة التي أسند إليه تدريسها ونظر أوقافها، وأن يعينهم فيها حسب العرف التنظيمي أو القواعد المعمول بها في تلك المدرسة بما يتطابق مع شروط الواقف، فعندما أعيد جمال الدين يوسف البساطي، إلى منصب قاضي قضاة المالكية في شهر ذي القعدة سنة ٨٠٧هـ/مايو١٤٠٥م، وأضيف إليه تدريس قبة الصالح، كان مما كتب في سجل تعيينه: "وأن يضاف إليه تدريس قبة الصالح والأنظار الشاهد بها توقيعه الشريف، وأن لا يُقرر أحد في دروس المالكية من مُدرس ومعيد إلا بتعيينه على أتم العوائد وأجملها وأعم القواعد وأكملها"[١].

وفي بعض الأحيان تَطلَّب الأمر تدخل السلاطين أنفسهم لاستصدار قرارات أو تواقيع سلطانية بتعيين معيدين ببعض المدارس، ويُستنبط من المادة العلمية الواردة بالمصادر التي بين أيدينا أن ذلك الأمر لم يتكرر حدوثه كثيرا، وربما كان يتمّ في حالات استثنائية ونادرة، مثلما حدث في تعيين شمس الدين محمد بن علم الدين بن القمّاح، الذي استقر في الإعادة بمدرسة الشافعي بالقرافة، "بتوقيع شريف"[٢] من السلطان المنصور قلاوون في شهر رجب سنة ٦٨٠هـ[٣]/أكتوبر ١٢٨١م، وكان

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١ ص١٩٢.

(٢) استعمل لقب الشريف لما يضاف إلى السلطان من أنواع المكاتبات فقيل "عهد شريف" و"تقليد شريف" و"توقيع شريف" و "مرسوم شريف"(محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، نشرت كملحق لكتاب صبح الأعشى (ج١٥)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٠١).

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ ص١٥٢.

السبب في ذلك حسب استقرائي لما أورده النويري[1]، خلو المدرسة المذكورة من المدرسين لمدة ثلاثين عاما منذ سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م واعتماد التدريس فيها خلال تلك الفترة على المعيدين فقط، وكانوا عشرة أنفس.

فهذا معناه أن تلك المدرسة لم يُعين لها مدرسون طوال الفترة المذكورة، ثمّ استؤنف تعيينهم بها بعد سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وهنا كانت الحاجة ماسة لإصدار تعيينات المدرسين والمعيدين وغيرهم من الموظفين بتلك المدرسة بتوقيع شريف من السلطان، خاصة أن كتاب وقفها يعود إلى السلطان الراحل صلاح الدين الأيوبي، فلابد أن تصدر التعيينات بها بتوقيع شريف من سلطان مثله، بصفته الرجل الأول في الدولة، لحين تفويض نظر وقفها لمن يرونه مناسبا لذلك الأمر.

وهذا هو الصحيح في اعتقادي، وتؤكده عبارة النويري[2] التي وردت في سياق طرحه لأحداث سنة اثنتين وثمانين وستمائة، والتي يقول فيها: "في عاشر شهر ربيع الأول فوّض السلطان (أي المنصور قلاوون) إلى الصاحب برهان الدين الخضر السِّنْجَاري، النظر والتدريس، بمدرسة الإمام الشافعي بالقرافة، بالجامكية (الراتب) والجراية، والرسم الشاهد به، كتاب الوقف الصلاحي، يوسف بن أيوب".

ومن المرات الأخرى التي تدخل السلاطين فيها لتعيين المعيدين ما حدث سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م عندما "رسم السلطان بتعويض الشيخ فخر الدين (أبو عمر بن

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١ ص٩٥، ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٣١ ص٩٥، ٩٦.

الشيخ علم الدين يوسف النويري المالكي) عن القضاء[١] بما يليق به فوليّ إعادة المدرسة الناصرية، ونيابة الحكم بالجامع الصالحي"[٢]. ومن هذه المرات أيضا تقريب السلطان قايتباي لابن الكركي وإعطائه مجموعة وظائف كان من بينها "الإعادة بالسيوفية في الصنادقيين وكذا بالمهمندارية[٣] بالقرب من جامع المارديني مع نيابة النظر فيها وفي الأبوبكرية[٤]، كل ذلك أو جله عن البدر ابن عبيد الله"[٥].

---

(١) كان الشيخ فخر الدين قد عُين للقضاء بدمشق وأثنى عليه جماعة من الأمراء والأكابر في مجلس السلطان حتى استقر أمره في الولاية ورسم السلطان بذلك، فنهض القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة في ولاية القاضي شرف الدين محمد بن معين الدين، وبالغ في أمره أتمّ المبالغة وجود الاعتناء حتى ولاه السلطان بدلا من الشيخ فخر الدين (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٢٩٧).

(٢) النويري: المصدر نفسه، ج٣٢ ص٢٩٧. والجامع الصالحى بظاهر القاهرة، خارج باب زويلة، (النويري: المصدر نفسه، ج٣١ ص٧١ وج٣٢ ص٦١). أنشأه الوزير الصالح طلائع بن رزيك في أواخر عهد الدولة الفاطمية (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٨١).

(٣) هذه المدرسة خارج باب زويلة فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل، بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزيّ المهمندار، ونقيب الجيوش، في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وجعلها مدرسة وخانقاه، وجعل طلبة درسها من الفقهاء الحنفية (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٤٨).

(٤) المدرسة الأبوبكرية أو البوبكرية تقع بجوار درب العباسي قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين اسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكري الناصريّ، في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، ووقفها على الفقهاء الحنفية (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٣٥، ٢٣٦).

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج١ ص٦١. وابن الكركي المذكور هو إبراهيم بن عبد الرحمن، البرهان أبو الوفاء وأبو الفضل ابن الزين المقري، الكركي الأصل، إمام السلطان، ولد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م بالقاهرة، وكان حاذقا باللسان التركي لمخالطته الأجلاء من أمرائهم، حتى إنه لما سافر الأمير قايتباي وهو شاد الشربخاناه إلى البحيرة استصحبه إماما، فلما ارتقى السلطنة قربه وأدناه وأحبه، وخوله مزيد النعم. (السخاوي: المصدر نفسه، ج١ ص٥٩، ٦١).

وهذه الأخيرة تكشف النقاب عن وجود نوع من الوساطة أو المحسوبية في عملية تعيين المعيدين ببعض مدارس مصر المملوكية، وتقف إلى جانبها إشارات أخرى وردت بالمصادر تؤكد وصول أناس غير مؤهلين علمياً إلى وظيفة الإعادة ببعض المدارس آنذاك لقربهم من السلاطين أو الأمراء، من أمثلة ذلك أن مُوَقّع الحكم، علم الدين صالح بن أحمد بن عبد الله الإسنوي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٦م) ولي الإعادة بإحدى مدارس مصر ورزق حظاً وافراً من الأمراء وغيرهم بغير علم، وكان في غاية الجهل، مما جعل أهل العلم يسخرون منه، وقيل فيه أشعار تهكمية تعكس تدني مستواه العلمي، منها:

ومعيد لو كتبت له حروفاً ... وقلت: أعد علي تلك الحروف
لقصر في إعادته عليها ... فكيف يعيد في العلم الشريف[1]

وجدير بالذكر أن وظيفة الإعادة في مصر المملوكية كانت تورّث في بعض المدارس أو تسند لأبناء الأساتذة ما دام هؤلاء الأبناء صالحين لهذه الوظيفة حسب شرط الواقف، وتمهيدا لأن يخلفونهم في وظيفة التدريس فيما بعد، وكان يُعمل بهذا ضمن إطار نظام توريث الوظائف بالمنشآت الدينية ما دام هذا الأمر لا يتعارض وما شرط الواقف من شروط[2].

وقد تضمنت وثائق وقف العصر المملوكي ومصادره ما يؤكد هذه الحقيقة، فقد أعاد بدر الدين عبد اللطيف (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) عند والده قاضي القضاة تقي الدين بن الحسين بن رزين (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م)

(١) المقريزي: السلوك، ج٤ ص٣٩٤ ــ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص١١٣.
(٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٣.

بالمدرسة الظاهرية ثم تولى تدريسها من بعده[1]، كما استقر يوسف بن حسين بن عثمان الكرادي الحنفي بعد أبيه في الإعادة بجامع ابن طولون[2]، وتولى أبو الفتح بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي الشافعي الإعادة بالمشهد الحسيني والمدرسة السيفية[3] نيابة عن جده أبي زكريا يحيى في حدود سنة ٧٢٠هـ[4]/١٣٢٠م، كما تنازل عيسى بن مسعود الزواوي لولده عليّ عن تدريس المالكية بالزاوية التي بمصر واستقر هو معيدا عن ولده حتى وفاته سنة ٧٤٣هـ[5]/١٣٤٣م.

ويدخل في إطار توريث الإعادة نظام تولية الإعادة بالإنابة، بمعنى أنه إذا وجد من يرث الوظيفة، ولم يكن قد تأهل لشغلها، لصغر سنه، فإنه

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٨٠ ــ اليافعي: مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٨٨ ــ الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٢٩٤ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٥ ــ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٠٩.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٣١١.

(٣) كانت في القاهرة فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين، بنيت في وزارة صفي الدين عبد الله ابن عليّ بن شكران سيف الإسلام، واسمه طغتكين بن أيوب، ظهير الدين سيف الإسلام الملك المعز ابن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي، أخو صلاح الدين، المتوفي في شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٩، ٢٠٠).

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣ ص٢٣٩.

(٥)ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١٠، ٢١١.

يستنيب عنه من يقوم بها إلى أن يتأهل لشغلها، وتكون الوظيفة في هذه الحالة باسم الولد حتى يتأهل ويتسلمها[1]، ويرى الدكتور محمد عبد الستار عثمان[2] أن الإنابة في التوظيف في العصر المملوكي أمر له دلالته الهامة، فقد أصبحت الوظيفة بهذا الشكل كما لو كانت حقا مكتسبا لشاغلها، وربما فعل المماليك ذلك كسبا لجانب هؤلاء الموظفين لتحقيق مكاسب سياسية سعوا إليها.

ومن الأمثلة على تولية الإعادة بالإنابة في مدارس مصر المملوكية ما حدث سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م عندما توفي الشيخ سراج الدين عمر بن علي بن فارس الحنفي المعروف بقارئ الهداية، فأعطى السلطان وظائفه لابنه الصغير، وكان من بينها الإعادة بالجامع الطولوني، ولمّا كان هذا الولد صغيرا جدا استنابوا عنه في الوظائف الشيخ العز عبد السلام البغدادي الحنفي[3]، ومات هذا الولد قبل أن يتسلمها، وكان العز غائبا وقت وفاته، فانتهز القاضي علم الدين ـ وهو إذ ذاك متولي القضاء ـ الفرصة لسحب هذه الوظائف من العز عبد السلام وأعطاها لغيره، فكانت الإعادة من نصيب الشهاب بن المحب بن الأشقر، فلما عاد العز وعلم بذلك تقدم بشكوى إلى السلطان فأعيدت إليه الوظائف[4].

---

(١) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص١٨١ ـ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٣.

(٢) نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٣.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م، ج٣ ص ١٠٨ ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦ ص١١٠.

(٤) السخاوي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٠١.

ويدخل في إطار توريث الإعادة أيضا نظام التشريك، والتشريك يعني أن يرث الوظيفة أكثر من شخص من أبناء الشاغل السابق لوظيفة ما، ما دام ذلك الأمر لا يتعارض مع شروط الواقف[1]، ففي المثال الذي سقناه قبل قليل عندما عمل القاضي علم الدين على سحب الوظائف من العز عبد السلام وأسندت وظيفة الإعادة بالجامع الطولوني للشهاب بن المحب بن الأشقر يقول السخاوي[2]: "توقف ابن الأشقر في ترك ولده جميع الإعادة فاشترك معه فيها".

ثالثًا: إقامة المعيدين بالمدارس

حرص مؤسسو المدارس في العصر المملوكي على توفير مساكن بالمدارس للمعلمين والمتعلمين على حد سواء، فألحقوا بالمدارس دورا يقيم فيها الطلاب والمعيدون والمدرسون[3]، ليكفلوا لهم الراحة والاستقرار والانقطاع لطلب العلم والتفرغ للتحصيل والدرس، وكانت الدور المخصصة للمعيدين داخل المدارس معزولة عن مساكن الطلاب حفاظا على مكانة المعيد ومركزه، وكان يطلق على كل منها "بيت الإعادة"[4]، وقد وردت بالمصادر إشارات متفرقة عن تلك الدور، كالدار

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص١٢٣.

(٢) الضوء اللامع، ج٤ ص٢٠١.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٦٨ ـ

Ibrahim (Mahmood): Practice and Reform in Fourteenth-Century Damascene Madrasahs, PP.80, 81.

(٤) ابن حجيّ: تاريخ ابن حجيّ (حوادث ووفيات٧٩٦ ـ ٨١٥هـ)، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ج١ ص٣٠٥.

التي كانت بالمدرسة الصالحية والتي سكنها أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصاري وقتما كان يعيد الفقه بالصالحية، "وكان يسكنها في خلوة بها على تخت جديد بجوار خلوة أبي حيان"(١)، كما سكن بها أيضا كمال الدين الأُدفوي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) عندما كان معيدا بتلك المدرسة(٢).

ومن هذه الدور أيضا تلك التي كانت بالمدرسة الناصرية بالقاهرة، وقد أشار النويري(٣) إليها في سياق طرحه لأحداث سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م، بقوله: "اتفق اجتماعي أنا والقاضي شمس الدين محمد بن عدلان الكناني القرشي الشافعي بمنزلي بالمدرسة المذكورة في بعض الليالي وهو أيضا ساكن بالمدرسة ومعيد بها".

ومن الملاحظ أنه كان يتمّ تخصيص سكن واحد لكل معيد بإحدى المدارس حتى وإن كان يعيد بأكثر من مدرسة، وفي الغالب تكون المدرسة التي يُقيم فيها المعيد هي المدرسة الأساسية بالنسبة له، فقد درَّس عز الدين النشائي(٤) بالمدرسة الفاضلية(٥) وأعاد بالظاهرية

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤ ص٢٤٣. وأبو حيان المذكور هو الإمام محمد بن يوسف، أبو حيان الغرناطي الأندلسي، من علماء العصر المملوكي، كان بارعا في النحو والحديث والتفسير وغيره، توفي ٧٤٥هـ/١٣٤٤م (الأُدفوي: الطالع السعيد، المقدمة، ص و، ط، ي).

(٢) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٨٦.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص١٠١.

(٤) هو أبو حفص عمر بن أحمد بن أحمد بن مهدي النشائي، توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م (الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٦) .

(٥) المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيساني، بجوار داره، في سنة ثمانين وخمسمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٧).

والكهارية[1]، وفي الأخيرة كان مسكنه[2]، كما أعاد جمال الدين الوجيزي[3] بالظاهرية وبالجامع الأقمر[4]، وكان مسكنه بجامع الأقمر إلى أن توفي فيه[5].

وكان إذا لم يتوفر مكان داخل دار الإعادة بالمدرسة للمعيدين الجدد حال تعيينهم عمل الواقفون والقائمون على أمر التعليم بالمدرسة على توفير سكن بديل لهم داخل المدرسة، وليس أدل على ذلك مما حدث مع

---

(١) المدرسة الكهارية: تنسب إلى درب الكهارية الواقع بجوار حارة الجودرية (المقريزي: الخطط، ج٣ ص٦٦) ومكانها اليوم الجامع المعروف بجامع الجودرى بشارع الجودرية، ومكتوب على اللوح الرخام المثبت بأعلى باب هذا الجامع أن الذي أنشأ هذه المدرسة هو الملك السعيد محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م. (النويري: نهاية الأرب، ج٣٢ حاشية ص ٢٤٨ ــ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩ حاشية ص٥٦) .

(٢) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٦.

(٣) هو أحمد بن محمد بن سليمان الوسطي الأصل، المعروف بالوجيزي، لكونه كان يحفظ الوجيز للغزالي، ولد بأشمون الرمان من الديار المصرية، سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وتفقه بالقاهرة إلى أن برع وناب في الحكم بها، وبمصر، توفي في الخامس من رجب سنة ٧٢٧هـ/ ٢٧ من مايو١٣٢٧م (الإسنوي: المصدر نفسه، ج٢ ص٣١٣، ٣١٤).

(٤) هذا الجامع أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٧٦ ــ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ حاشية ص١٧١) .

(٥) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٣١٤.

الشريف السمهودي[1] عندما قرره المناوي معيداً في الحديث بجامع ابن طولون، وفي الفقه بالصالحية وأسكنه قاعة القضاء بها[2].

وهذا يعكس لنا أمرين مهمين: أولهما حرص الواقفين والمهتمين بأمر التعليم في مصر المملوكية على توفير مساكن للمعيدين داخل المدارس ليحققوا لهم الانقطاع لطلب العلم والتفرغ للتحصيل والدرس وتأدية مهام الإعادة داخل المدارس على أكمل وجه ممكن.

أما الأمر الثاني فهو وجود مساحة من الحرية والمرونة في عملية تسكين الموظفين داخل المدارس، بحيث يُوفَّر سكن لمن لا سكن له بالمدرسة من الدور التي خصصت لسكنى موظفيها ما دام الأمر يسمح بذلك، وبما لا يخل بشروط الوقف، لاسيما أن حجج الوقف على المنشآت التعليمية لم يكن يُحدد بها غالبا مكان بعينه لسكنى أرباب وظيفة بعينها داخل المنشأة التعليمية، ففي وثيقة وقف المدرسة الناصرية والقبة

(١) هو نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، القاهري، نزيل الحرمين وعالم طيبة، ويعرف بالشريف السمهودي، ولد سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م بسمهود، ونشأ بها، وقدم القاهرة، واستوطن بها، مات سنة ٩١١هـ/١٥٠٥ (السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بنشره وطبعه أسعد طرابزوني الحسيني، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة ١٩٨٠م، ج٣ ص٢٢٧، ٢٢٨ والضوء اللامع، ج٥ ص٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج٣ ص٢٢٨ والضوء اللامع، ج٥ ص٢٤٥.

المنصورية ورد مثلا ما نصه: "وأما الموضع الذي فيه الأواوين الأربعة[1] وما به من البيوت السفلية والعلوية والقاعة المجاورة للإيوان القبلي وما حواه من الأبنية فإنه وقف ذلك على المدرسين بها، والمعيدين والفقهاء والمتفقهين بها المشتغلين بالعلم الشريف على مذاهب الأئمة الأربعة، وعلى الإمام والمؤذنين والقومة والبواب بهذه المدرسة وغير ذلك، يسكن بها المدرسون والمعيدون والفقهاء والأئمة في بيوتها للاشتغال بالعلم الشريف" [2]. وفي وثيقة الوقف الخاص بمدرسة عبد الغني الفخري المؤرخة ١٨ رمضان سنة ٨٢٠هـ ورد ما نصه: "وأما بقية حقوقها من القاعتين والخلاوي والبيوت والخزاين والسبيل والصهريج وغير ذلك من حقوقها فأنه وقف ذلك كله ليعين هو (أي الواقف) من ذلك ما يرى تعيينه ممن سيقرره بالمدرسة المذكورة من أرباب وظائف بها من المدرسين ذوي المذاهب الأربعة ومشايخ تفسير القرآن العظيم وحديث سيدنا محمد

---

(١) من المعروف أنه منذ أواخر العصر الأيوبي بدأ إنشاء المدرسة الرباعية، أو ما يمكن أن نسميه كلية جامعية ذات أقسام أربع، وبدأ ذلك بالمدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح أيوب، وجعل فيها لأول مرة دروسا للمذاهب الأربعة، فقد أنشأها على هيئة أربعة أواوين متعامدة في وسطها صحن مكشوف، وخصص كل إيوان لمذهب من المذاهب الأربعة، وهذا الطراز من المدارس هو الذي انتشر في العصر المملوكي، وجرت العادة أن يحدد الواقف بوثيقة الوقف مكان لكل درس بهذه الأواوين. (محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٤٢، ٢٤٣) ـ

Al-Harithy (Howayda): The Four Madrasahs in the Complex of Sultan Hasan, PP.49, 50.

(٢) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٣٢ ص٦٨.

النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم وقُراء القراءات السبع وغير ذلك من العلوم ومعيدين وطلبة وصوفية وإمام ..."[1]. كما ورد بوثيقة وقف مدرسة ايتمش البجاسي ما نصه: "وأما الطباق الثلاث المذكورات المتوصل إليها من الإيوان المذكور فإنه وقفها لسكنى من يعينه الناظر من المشايخ والطلبة فأرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة"[2].

وعلى أية حال فقد عاش المعيدون زمن المماليك في المساكن التي خصصت لهم بالمدارس في حالة مستقرة، بفضل اهتمام الواقفين بتلك المساكن وتوفير سبل الراحة للمقيمين بها من المعيدين وغيرهم، ويكفي أن ندلل على ذلك بالرعاية الصحية التي كانت تقدم لهم بمساكنهم، فقد اشترط الواقفون على الأطباء الحضور يوميا إليهم لمعالجة من يمرض منهم، بحيث لا يكلف المريض بالحضور إلى الطبيب، بل يشترط الواقف ضرورة توجه الطبيب إلى المريض حيث سكنه، والشاهد معنا هنا ما ورد بوثيقة وقف السلطان حسن من أن "يرتب الناظر رجلين مسلمين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان، والثاني عارف بصناعة الكحل، على أن كلا منهما يحضر في كل يوم إلى المكان المذكور، ويداوي من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه، وممن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس لهم سكن بالمكان، ومن مرض من المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه يُوجه الطبيب إليه في مكان إقامته، ولا يكلف المريض بالحضور إلى الطبيب"[3].

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص٤٨١.
(٢) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه، ص٤٧٤.
(٣) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص١٧٤، ١٧٥.

رابعًا: دور المعيدين في إثراء الحياة العلمية في العصر المملوكي

كان للمعيدين بمدارس مصر المملوكية دور ملحوظ لا يمكن إغفاله في إثراء الحياة العلمية وتنشيط حركتها في العصر المملوكي، ويمكن إبراز ذلك الدور من خلال ما هو آت:

١ــ تأدية مهام الإعادة بمجالس التدريس

من المعروف أن العملية التعليمية في مدارس مصر المملوكية كانت تتم من خلال مجالس تدريسية[١] أو حلقات علمية يجلس فيها الشيخ أو المدرس يلقي الدروس والطلاب مجتمعون حوله[٢] في جهة واحدة ليكون نظره إليهم جميعًا عند الشرح[٣]، وحضور المعيدين تلك المجالس أو الحلقات كان من صميم عملهم، فكل معيد يلزم حلقة شيخه ــ الذي يتبعه في المذهب ومادة التخصص ــ في التدريس ويحضر إليها في الوقت المعتاد للحضور والمنصوص عليه في وثيقة الوقف[٤]، ويجلس عن يمينه

---

(١) ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٣٢.

(٢) Manjikian (Sevak Joseph): Education and Training Under the Mamluks, PP.55, 56.

(٣) ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٣١.

(٤) حددت وثائق الوقف مواعيد الدراسة في العصر المملوكي بدقة تامة، حتى أصبحت تقليدا معمولا به، فكان اليوم الدراسي ممتدا من طلوع الشمس إلى آذان العصر، وكان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانيات المكان، وحسب ظروفه، خلال اليوم الدراسي، من وقت صلاة الظهر إلى آذان العصر مثلا، أو مقدار ذلك مما بين طلوع الشمس إلى آذان العصر، أما أيام الدراسة فكانت تتراوح ما بين ثلاثة أيام وخمسة أيام من كل أسبوع حسب شرط الواقف، وكان هناك أجازات سنوية يحددها الواقف، ولذا نرى مواعيدها اختلفت من وثيقة إلى أخرى، والملاحظ أنها كانت تتفق والمناسبات الدينية التي يقام فيها شعائر دينية معينة سواء كانت فرض أم سنة (انظر، محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٤٩: ٢٥١).

أو يساره[1]، وإذا كان للمدرس معيدان فيجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره[2]، وهذا يعني وجود أكثر من معيد في داخل التخصص الواحد ما دام التخصص معيارا للتعيين، وجلوس المعيد في هذا الموضع بالقرب من المدرس يعكس مكانة المعيد الرفيعة وأهمية دوره في مجلس التدريس، فلا يجلس في ذلك المكان إلا المتميزون والمبجلون من معيد أو زائر، وفي ذلك يقول ابن جماعة[3]: "وإذا كان الشيخ في صدر مكان، فأفضل الجماعة أحق بما على يمينه ويساره ... وقد جرت العادة في مجالس التدريس بجلوس المتميزين قُبَالة وجه المدرس أو المبجلين من معيد أو زائر عن يمينه أو يساره".

وأول ما كان يقوم به المعيد من مهام في مجلس التدريس أو الحلقة العلمية هو المشاركة مع باقي الحاضرين في تقاليد افتتاح الجلسة وفق قواعد محددة جرى العرف التعليمي آنذاك على القيام بها قبل الدخول في شرح الدرس، حيث يقرأ المدرس ومن معه من المعيدين والطلبة ما تيسر لهم قراءته من القرآن الكريم تيمنا وتبركا به، ويقرءونه إما من ربعة[4]

---

(١) ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٣٢.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ، المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت)، ص٢٠٥.

(٣) تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٤) الربعة: تطلق على المصحف المُجزّء إلى أجزاء كل جزء في تجليدة خاصة مستقلة عن غيرها.

شريفة يُطاف عليهم بأجزائها أو من صدورهم، ثم يدعون عقيب ذلك للواقف ولذريته وللحاضرين ولجميع المسلمين[1].

ومراسيم الافتتاح هذه تكاد تكون واحدة في كافة مجالس التدريس بمدارس مصر المملوكية، ودور المعيد فيها لم يختلف من مدرسة إلى أخرى، فيما عدا اشتراط بعض الواقفين أن تُفتتح الجلسة بقراءة سور معينة من القرآن الكريم، وأن يشتمل الدعاء عقيب القراءة على الدعاء للسلطان، مثل الذي ورد في وثيقة وقف مدرسة ايتمش البجاسي: "أن يستفتح المُدرس والمعيد والطلبة المذكورين فيه بقراءة سورة البقرة، وتبارك الذي بيده المُلْك (أي سورة المُلك)، ثم يقرأ أحدهم ما تيسر له قراءته من كتاب الله العظيم، رافعا صوته، ويدعو عقيب القراءة لمولانا السلطان الملك الظاهر (أي الظاهر برقوق) خلد الله ملكه وأدام دولته"[2].

وبعد الانتهاء من مراسيم الافتتاح يقوم المعيد بقراءة ما يحدده له المدرس من موضوعات ودروس، والطلبة يسمعون ويتباحثون مع المدرس فيها، فيشرحها لهم ويجيب على تساؤلاتهم ويُبين لهم ما أشكل عليهم، ومن الوثائق التي ورد فيها مثل ذلك الأمر: وثيقة وقف الأمير صرغتمش التي شرط الواقف فيها عقيب افتتاح الجلسة أن "يقرأ المعيدون المذكورون على المدرس المذكور ثلاث دروس من الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، فكل معيد يقرأ درساً واحداً

---

(١) وثيقة الأمير صرغتمش، نشر عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد٢٧، ص١٤٧ ــ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢ ص ٦٨، ٦٩ ــ ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص٤٧٥.

من كتاب يُعينه له المدرس المذكور في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، يقرأ المعيدون المذكورون مما يُعينه لهم المدرس المذكور واحداً بعد واحد، والطلبة يسمعون ذلك ويبحث من فيه أهلية البحث[1] من الطلبة المذكورين، ويُبين المدرس المذكور للطلبة المذكورين ما يشكل عليهم من ذلك، من كشف غامض أو حل مشكل"[2].

وعلى المعيد أن يصغي جيدا لما يشرحه المدرس في حلقة الدرس، ويكون أكثر تركيزا واستيعابا للدروس من غيره، فهو "عليه قدر زائد على سماع الدرس: من تفهيم بعض الطلبة، ونفعهم، وعمل كل ما يقتضيه لفظ الإعادة"[3]، حتى يتسنى له إعادة ما ألقاه المدرس إلى الطلبة، ليفهَمُوه ويُحْسنُوه[4]، وتلك هي مهمته الرئيسية التي عُين من أجلها.

---

(١) الطلاب المؤهلون للبحث، يطلق على كل منهم لفظة "المفيد"، وهم أقل درجة من المعيد، ويأخذون أجرا مقابل البحث، وكأنهم كانوا يقومون بوظيفة "مساعد باحث" الموجودة في بعض الجامعات حاليا، واستنتجنا ذلك من تعريف ابن السبكي للمفيد بقوله: "المفيد، عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة: من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك. وإلا ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها، وكان أخذه العوض في مقابلها حراما". (انظر، معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥م، ص١٠٨).

(٢) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٤٧.

(٣) ابن السبكي: معيد النعم، ص١٠٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٦٤ ــ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط١، ١٩٩٠م، ص١٤٢.

ومن حسن الحظ أن هناك وثائق وقف ومصادر من العصر المملوكي احتفظت لنا بنصوص يتجلى من خلالها أداء المعيدين مهمة الإعادة ومنهجيتهم في العمل والأوقات التي يعيدون فيها الدروس وغير ذلك من الأمور المتعلقة بتلك المهمة، ففي وثيقة وقف الأمير صرغتمش ورد ما نصه: "وكل واحد من المعيدين المذكورين يحضر قبل المدرس أو يتأخر بعده ويشغل من يحضر إليه من الطلبة المذكورين في العلوم الشرعية خاصة ويبين لهم ما يشكل عليهم فيما يشتغلون فيه عليه من العلوم الشرعية خاصة من حل مشكل وكشف غامض وما عسر عليهم فهمه ويحثهم على الاشتغال ويسلك معهم مسلك الإفادة والتعليم"(١).

كما ورد في وثيقة وقف مدرسة ايتمش البجاسي: "وعلى المعيد أن يجلس بعد فراغ الدرس أو قبله ويقرأ عليه ما يختار القراءة من الطلبة المذكورين ما أحب قراءته، ويبين المعيد المذكور له ما أشكل عليه من شرح فيمده بمواد علومه الذي وصلت إليه"(٢).

ونصت وثيقة وقف المدرسة الناصرية والقبة المنصورية على أن "ينتصب كل معيد ممن عين في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته، ويشرح لمن احتاج الشرح درسه ويصحح له مستقبله، ويرغب الطلبة في الاشتغال، ولا يمنع فقيها أو مستفيدا ما يطلب من زيادة تكرار وتفهم معنى ولا يقدم أحدا من الطلبة في غير نوبته إلا لمصلحة ظاهرة"(٣).

---

(١) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٤٧، ١٤٨.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص٤٧٦.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٦٩.

وفي الإطار ذاته يقول السبكي[1]: "ثم ينهض كل معيد مع أصحابه المرتبين معه فيعيد عليهم من الدروس ما هو بصدده من المذهب إن كان مذهبا والخلاف إن كان خلافا وغير ذلك من العلوم الشرعية، وعليهم الحضور بعد صلاة العصر لإعادة الدروس بالمكان الذي يذكر فيه الدروس".

ويقول ابن جماعة[2]: وينبغي للمعيد بالمدرسة أن يطالب المتعلمين "بعرض محفوظاتهم إن لم يعين لذلك غيره، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس، ولهذا يسمى معيدًا".

والواضح من خلال تلك النصوص ـ آنفة الذكر ـ أن المعيدين كانوا يقومون بدور مهم في العملية التعليمية بمجالس التدريس عن طريق الجلوس مع الطلبة قبل الدرس أو بعده لمساعدتهم على استذكار دروسهم ومراجعتها حتى يستوعبوها ويفهموها، فضلا عن تشجيع الطلاب على طلب العلم وحثهم على تحصيله.

كما يتبين من هذه النصوص أن المعيد لم يكن يعيد للطلبة كل ما ألقاه عليهم المدرس من دروس، وإنما كان يعيد لهم بعضها، ويوضح ما غمض عليهم منها ويشرحه، وقد أصدر السبكي[3] فتوى تؤكد ذلك عندما أجاب على تساؤل: هل يلزم كل معيد بالمدرسة أن يعيد درسا كاملا من الدروس التي يعينها المدرس له أم يعيد بعضه وتبرأ ذمة المعيد بأن يقتصر على إعادة بعض من درس الفقه مثلا أو من غيره ويستحق

(١) فتاوى السبكي، ج٢ ص٦٣.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٦٠.

(٣) فتاوى السبكي، ج٢ ص٦٣: ٦٥.

المعلوم المشروط له بمجرد ذلك ؟ وجاء الجواب بقوله: "وكل معيد إنما يلزمه إعادة ما هو بصدده إما من المذهب وإما من الخلاف وإما من غير ذلك ولا يلزمه ذكر الجميع... وإنما يعيد للفقهاء ما يحتملونه وقد تقصر أذهانهم عن ذكر كل ما ذكره المدرس مما فهمه المعيد، وقد يذكر المدرس ما لا يفهمه المعيد، فالمقصود إعادة المقصود منه الذي ينتفع الطالب به... وليس المراد أن على كل واحد إعادة ذكر الدروس، لأن القرينة ترشد إلى خلاف ذلك، والقرينة معلومة من لفظ الواقف ومن الفرق ومن المعنى... فالمدرس يُعلّم المعيدين والمعيدون يُعلّمون من دونهم أي المبتدئين، ولا يُعَلَّمُ كل واحد إلا على قدر ذهنه من يَتَعَلَّمُ كُلَّ ما الناس يفهمونه، وفي هذا المحل يسمح ببعض ما يُعَلَّمُ لاحتمال الإغفال والنسيان".

والمعيد بهذا يساعد المدرس في أداء عمله ويوفر عليه بذل الجهد والوقت لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، خاصة وأن وقت المدرس لم يكن يتسع لذلك[1]، وكأن القصد من قيام المعيد بمهمة الإعادة المحافظة على وقت المعلم وعلى احترامه ومكانته، وتخفيف الجهد عنه وعن المتعلمين معا، ومن جهة أخرى إعداد المعيد وتهيئته للقيام بوظيفة المدرس مستقبلا.

ويفهم من النصوص السابقة أيضا، أن كل معيد كان يعيد الدروس لمجموعة معينة من الطلاب يحددها له المدرس، وورد ما يؤكد ذلك في وثيقة وقف المدرسة الناصرية والقبة المنصورية في عبارة "ينتصب كل معيد ممن عين في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته"، كما ورد في

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٤٥.

قول السبكي: "ثم ينهض كل معيد مع أصحابه المرتبين معه"، وفي قوله صراحة في موضع آخر: "ومن وظائف المدرس أن يرتب لكل معيد جماعة يعيد عليهم ما هو بصدده"(١).

ولعل تقسيم الطلاب إلى مجموعات وتوزيعها على المعيدين بهذه الكيفية يدل على أن نظام التعليم في العصر المملوكي كان في أوج من الإتقان والتطور، فذلك النظام هو نفسه المعمول به في الكليات الجامعية في عصرنا الحالي.

والشيء الأروع من ذلك أن تلك التقسيمات صاحبها في بعض المدارس وجود مساحة من تحقيق رغبة الطالب في اختيار المعيد الذي يعيد عليه دروسه، ويُستفاد ذلك من حكاية وردت بالمصادر على لسان الشيخ نجم الدين أحمد بن الرفعة عندما كان هو والقاضي سراج الدين الأرمنتي (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) مُعيدَين بمدرسة زين التُّجار، فهو يحكي عن نفسه ويقول: "كنت مرة في الإعادة فصار الطلبة يأتون إليّ ولا يجلس عنده أحد (أي عند سراج الدين) حتى اتسعت الحلقة ووصلت إليه، فأخذ سجادته على كتفه ونظر إلي فقال: أروح إلى الجامع ألقي درسين في الأصول والنحو، يعرض بأني لا مهارة لي فيهما كالفقه"(٢).

إلى جانب ما سبق كان من مهام المعيد وواجباته في مجالس التدريس أن يُعلِم المدرس (أو الناظر) بمن يرجى فلاحه من الطلاب "ليزاد

---

(١) السبكي: فتاوى السبكي، ج٢ ص ٦٥.

(٢) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٧٢٩: ٧٣١ ــ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩ ص١٨٤ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ حاشية ص٣٩٩، ٤٠٠ــ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٨٦.

ما يستعين به ويشرح صدره". وأن يقدم أشغال أهل المدرسة على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط[١]، فإذا شرط عليه إقراء أهلها فيها في وقت، فلا يُقدِّم عليهم الغرباء فيها بغير إذنهم[٢]. ولا يُقدِّم أحدا من الطلبة في غير نوبته إلا لمصلحة ظاهرة[٣].

وصفوة القول إن المعيدين في مدارس مصر المملوكية كان لهم دور مهم في تنشيط الحركة العلمية من خلال تأدية مهام أو واجبات الإعادة المكلفين بها في مجالس التدريس، والتي ساهموا من خلالها بشكل ملحوظ في التخفيف من الأعباء الواقعة سواء على كاهل المدرس أو على الطلاب أنفسهم، فضلا عن قيام بعض المعيدين بأعمال أخرى تطوعية ساعدت في التقارب بينهم وبين الطلاب وساهمت في مضي العملية التعليمية قدما، ومن هؤلاء المعيدين: مبارك بن نصر القوصي المعيد بالمشهد الجيوشي، والذي كان من الصالحين المتواضعين، يخدم الطلبة بنفسه، ويعالج المرضى، ويجهز لهم بعض المأكولات من عنده[٤].

٢ــ الإعادة بأكثر من مدرسة وفي أكثر من تخصص

لم يكتف كثير من المعيدين في مصر المملوكية بالإعادة بمدرسة واحدة أو في تخصص واحد، ويمكن إرجاع ذلك إلى مجموعة عوامل يتمثل أولها في ارتباط المعيد بالمدرس الذي يتبعه في مادة التخصص، فبحكم عمل بعض المدرسين في

---

(١) ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) ابن جماعة: المصدر نفسه، ص٢٣٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٦٩.

(٤) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٤٧٤، ٤٧٥ ــ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٧٥.

أكثر من مدرسة[1] انعكس ذلك بالتبعية على معيديهم، فقد أعاد الشريف شهاب الدين الحسيني المعروف بابن قاضي العسكر بمدرستين مختلفتين عند مدرس واحد سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م، ويَحكي ذلك هو عن نفسه بقوله: "وفيها باشرت الإعادة بمدرستيّ الإمَام السَّيِّد الْحُسَيْن ومدرسة الأمير فَخر الدّين عُثْمَان[2] عِنْد ابْن المرحَّل زين الدّين وأقضى القُضاة نجم الدين القَمُوليّ"[3].

ومن هذه العوامل أيضا سعي بعض المعيدين وراء الكسب المادي نظرا لضعف رواتبهم مقارنة بما كان يتحصل عليه المدرسون، كما سيتضح تفصيلا عند مناقشة رواتب المعيدين. ومنها كذلك العجز في نقص المعيدين ببعض المدارس، فلو كان بكل مدرسة ما يغطي احتياجاتها من المعيدين في التخصصات التي تُدرس بها ما رأينا ظاهرة الإعادة بأكثر من مدرسة وفي أكثر من تخصص منتشرة بين كثير من معيديّ مدارس مصر المملوكية.

ومهما كانت تلك العوامل، فالذي يهمنا أن تأدية المعيدين مهام الإعادة بأكثر من مدرسة وفي أكثر من تخصص بمدارس مصر المملوكية

---

(١) وذلك تحقيقا للكسب المادي، حتى إن البعض من المدرسين كان يرغبون عن التدريس في أماكن معينة للتدريس بمدارس أخرى طمعا في الزيادة في الرزق. (محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٣) .

(٢) وهي المعروفة بالمدرسة الفخرية، وكانت بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العدّاس، عمّرها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل الباروميّ، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبي، وكان الفراغ منها في سنة اثنتين وعشرين وستمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٩).

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣ ص٣٣.

ساعد في تنشيط الحركة العلمية في ذلك العصر، عن طريق المساهمة في سد فراغ وظيفي وتخصصي ببعض المدارس، كما ساعد في تغطية احتياجات المدارس من المعيدين، وهو أمر له أهميته بطبيعة الحال في سير العملية التعليمية وتنشيطها وإتمامها بشكل صحيح، فلا غنى عن دور المعيدين في تلك العملية، وقد اتضح لنا فيما سبق أهمية ذلك الدور من خلال مهام وواجبات المعيدين في المجالس التدريسية.

والمصادر التي بين أيدينا تحمل في طياتها إشارات كثيرة إلى معيدين شغلوا وظيفة الإعادة بأكثر من مدرسة من مدارس مصر المملوكية، لكن المجال لا يتسع هنا لذكرها قاطبة، خاصة وأن كثيرا منها لم يُفهم منه هل عمل هؤلاء المعيدون بتلك المدارس في وقت واحد أم عملوا بها على التوالي؟ لذا سنقسم الإشارات الواردة بالمصادر بخصوص عمل المعيدين بأكثر من مدرسة أو في أكثر من تخصص إلى قسمين: أولهما يتضمن إشارات يتضح منها بجلاء وبما لا يدع مجالا للشك أن هناك معيدين عملوا بأكثر من مدرسة في آن واحد، أو في أكثر من تخصص، وهذه نذكر منها ما وقعت عليه أيدينا بالمصادر المتاحة لنا، أما القسم الثاني فهو عبارة عن إشارات تدل على شغل وظيفة الإعادة بأكثر من مدرسة، لكنها لم تبين إن كان أصحابها شغلوها في وقت واحد (بالتوازي) أم شغلوها في أوقات متعاقبة (على التوالي).

ومن الإشارات التي تندرج تحت القسم الأول والتي تنهض دليلا على أن هناك معيدين عملوا بأكثر من مدرسة في آن واحد، أو في أكثر من تخصص، ما أورده الصفدي[1] على لسان الشريف شهاب الدين المعروف بابن قاضي العسكر بقوله:

---

(١) الوافي بالوفيات، ج١٣ ص٣٣.

"وفيها (أي في سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م) باشرت الإعادة بمدرستي الإمَام السَّيِّد الْحُسَيْن ومدرسة الأمير فَخر الدّين عُثْمَان عِنْد ابْن المرحَّل زين الدّين وأقضى الْقُضَاة نجم الدّين الْقَمُولِيّ". ومنها أيضا ما أورده السخاوي[١] عن الشريف السمهودي (ت ٩١١هـ/١٥٠٦م) من أن الشيخ المناوي "خطبه لتزويج سبطته الشريفة ابنة أحمد المصري الصبار، وقرره معيداً في الحديث بجامع ابن طولون، وفي الفقه بالصالحية وفي غيرهما من الوظائف".

وهذه الأخيرة توضح بجلاء أن هناك معيدين عملوا بأكثر من مدرسة وفي أكثر من تخصص في آن واحد.

ومن الإشارات الأخرى الدالة على عمل بعض المعيدين في أكثر من تخصص، ما ورد بخصوص مجد الدين السنكلومي[٢](ت ٧٤٠ هـ/١٣٣٩م) الذي وُلي "الإعادة في الفاضلية والقطبية[٣] والظاهرية وغيرها من

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج٣ ص٢٢٨ والضوء اللامع، ج٥ ص٢٤٥.

(٢) نسبة إلى سنكلوم من أعمال بليس وهي بالسين المهملة والنون والكاف واللام والميم، هذا هو الصحيح وإنما الناس غيروا ذلك وقالوا الزنكلوني (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠ ص١٤٢).

(٣) المدرسة القطبية: بالقاهرة في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريريّ، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانيّ، في سنة سبعين وخمسمائة، وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقريزي: الخطط،ج٤ ص١٩٦). وفي مواضع أخرى أورد المقريزي مدرسة أخرى بنفس المسمى يقول: إنها هي القطبية الجديدة، وتقع في أوّل حارة زويلة برحبة كوكاي، عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون ، ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه نسبت، وكان وقفها في سنة خمس وستمائة (المصدر نفسه، ج٤ ص٢٠٠، ٢٣٧).

المدارس"[١] "في الحديث والفقه"[٢]. ومنها ما أورده السخاوي[٣] عن محمد بن يوسف الملقب بكتكوت (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م) من أنه وُلي "الإعادة للمحدثين بالظاهرية القديمة وفي درس الشافعي".

أما بخصوص القسم الثاني أو الإشارات الدالة على شغل وظيفة الإعادة بأكثر من مدرسة دون تحديد إن كان أصحابها شغلوها في وقت واحد أم لا، فهي كثيرة، منها مثلا أن أبا موسى الأندلسي أحمد بن محمد بن عامر بن فرفد (ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م) ولي الإعادة بالمدرسة القطبية وبالزاوية التي بجامع عمرو ابن العاص[٤]. وأن نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد الله الطوفي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) أعاد بالمدرسة الناصرية والمنصورية[٥]، ومحيي الدين بن المارستاني الحنفي (ت٧٢٤هـ/١٣٢٤م) بالمنصورية والناصرية والظاهرية والصالحية[٦]، وتقي الدين الصائغ محمد بن أحمد بن عبد الخالق (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م)

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج٤ ص٢٢٩.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠ ص١٤٢.

(٣) الضوء اللامع، ج١٠ ص٩٦.

(٤) السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص٣٦٧.

(٥) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٥م، ج٤ ص٤٠٦ ـ العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ج٢ ص٢٥٧.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤ ص١٥١.

بالمدرسة الطيبرسية[١] والشريفية بمصر وغيرها[٢]، وجمال الدين الوجيزي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) بالظاهرية وبالجامع الأقمر[٣]، ومحمد بن أسعد القاياتي الثقفي (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) بزاوية الشافعي بالجامع وبالمجدية[٤]، وعبد القادر بن أبي القاسم بن علي الإسنائي الشافعي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) بالمنصورية وغيرها [٥]، ومحمد بن عبد الصمد، قطب الدين السنباطي (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) بالصالحية والناصرية[٦].

وأعاد نجم الدين الأسواني، الحسين بن علي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) بالمدرسة الشريفية[٧] بالقاهرة وغيرها[٨]، وشمس الدين محمد بن عدلان

---

(١) هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر من القاهرة، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداريّ نقيب الجيوش، وانتهت عمارتها في سنة تسع وسبعمائة (المقريزي: الخطط،ج٤ ص٢٢٣).

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢ ص١٠٣ ــ الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٥٠ ــ ابن قاضى شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص٣٧١، ٣٧٢.

(٣) الإسنوي: المصدر نفسه، ج٢ ص٣١٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣ ص٣٨٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ج٢ ص٣٩١.

(٦) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج٤ ص٢١٤.

(٧) وهي غير الشريفية التي بالفسطاط المعروفة بمدرسة ابن زين التُجار، ويقول المقريزي عن الشريفية التي بالقاهرة: هذه المدرسة بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية، وقفها الأمير فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن ثعلب، الجعفريّ الزينبيّ، أمير الحاج وأحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية، وتمت في سنة اثنتي عشرة وستمائة. (الخطط، ج٤ ص٢٠٨).

(٨) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٢٢٤، ٢٢٥ ــ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣ ص١٦.

القرشي الشافعي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) بالصالحية والناصرية[١] وكمال الدين أبو العباس أحمد بن عمر النَّشائي (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) بالظاهرية والصالحية وغيرها[٢]، ومحمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن جُنَاق (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م) بالمنصورية وجامع الحاكم[٣]، وعبد العزيز بن محمد المعروف بابن البساطي (ت٨٨١هـ/١٤٧٦م) بالصالحية والناصرية وجامع الصالح وغيرها[٤].

وهناك إشارات بالمصادر إلى معيدين أعادوا بأكثر من مدرسة دون تحديد أسماء تلك المدارس، وفي مثل هذه الإشارات يرد عن المعيد مثلا أنه "أعاد ببعض المدارس"، كرافع بن هجرس بن محمد بن شافع بن نعمة الصميدي (ت ٧١٨ هـ/١٣١٨م)[٥]، وتاج الدين إسماعيل بن خليل (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)[٦]، وبدر الدين أبو اليمن، محمد بن نور الدين علي الحكري المصري الحنبلي (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[٧].

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤ ص٢٤٧.

(٢) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٦ ـ ابن قاضى شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص١٣ ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٣١٢.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص٧٢، ٧٣. يقول المقريزي: جامع الحاكم بني خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة، وأوّل من أسسه الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله. ولمّا وسّع أمير الجيوش بدر الجماليّ القاهرة وجعل أبوابها حيث هي اليوم، صار جامع الحاكم داخل القاهرة، وكان يعرف أوّلا بجامع الخطبة، ويعرف اليوم بجامع الحاكم، ويقال له الجامع الأنور. (الخطط، ج٤ ص٥٥).

(٤) السخاوي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٢٧.

(٥) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢ ص١٠٦، ١٠٧.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢ ص٣٩٢.

(٧) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٩ ص٣٢٥.

وأحيانا يرد عنه أنه "أعاد بعدة مدارس" كبدر الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الحراني المعروف بابن الحبّال (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)[١]، أو يرد عنه أنه أعاد بأماكن، كزين الدين قاسم بن محمد النويري المالكي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦) الذي ورد عنه أنه "أعاد للمالكية بأماكن"[٢].

والخلاصة أن هناك معيدين عملوا بأكثر من مدرسة أو في أكثر من تخصص بمدارس مصر المملوكية، وساهموا من خلال ذلك في تغطية احتياجات المدارس من المعيدين في التخصصات المختلفة، مما ساعد في دفع عجلة النهوض بالعملية التعليمية وتنشيط حركتها في العصر المملوكي.

٣ـ الجمع بين مهام التدريس والإعادة وسد العجز في المدرسين

أجاز بعض الفقهاء إمكانية الجمع بين أكثر من وظيفة بالمدرسة لشخص واحد ما دامت فيه الأهلية لهذه الوظائف، وقالوا لو شرط الواقف ناظرا أو مدرسا ومعيدا وإماما، وأمكن أن يُجمع بين هذه الوظائف لواحد فُعل[٣].

وتشير مصادر العصر المملوكي إلى أن هناك معيدين ببعض المدارس كانوا يشغلون إلى جانب الإعادة وظائف التدريس بمدارس أخرى، ومن أمثلة ذلك، نصير الدين بن الطباخ (ت٦٦٩هـ/١٢٧٠م) الذي درّس بالقُطبيّة، وأعاد

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٢٦٩.

(٢) ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج٨ ص٦١٤، ٦١٥.

(٣) المرداوي: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م، ج٧ ص٦٦ ـ الحجاوي: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق عبد اللطيف محمد موسى، دار المعرفة، بيروت (د.ت)،ج٣ ص١٦، ١٨.

بالصالحية عند ابن عبد السلام[١]. وأبو الدر نجيب الدين لؤلؤ بن أحمد (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) الذي تصدر للإقراء بجامع الحاكم وأعاد بالسيوفية[٢]. والشيخ ظهير الدين جعفر بن يحيى التزمنتي (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) الذي كان أحد المعيدين بمدرسة الشافعي ومُدرّسا بالمدرسة القطبية بالقاهرة[٣]، وعز الدين النشائي (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م) الذي أعاد بالظاهرية والكهارية ودرَّس بالمدرسة الفاضلية وكان متصدرا لإقراء النحو بجامع الأقمر[٤]. و جمال الدين أبو الطيب، الحسين بن عَليّ بن عبد الْكَافِي بن السبكي (ت٧٥٥هـ/١٣٥٤م) الذي درس بالمدرسة الكهارية وولي الإعادة بدرس القلعة عند القاضي شهاب الدين بن عقيل[٥]. ومحمد بن أبي محمد التبريزى (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الذي ولى تدريس الجامع الماردينى[٦] وأعاد بدرس الشافعى[٧].

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، ج١ ص٣٥٨.

(٢) السيوطي: المصدر نفسه، ج١ ص٤٠٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١ ص١١٨ ــ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ ص١٨١ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢١٨، ٢١٩.

(٤) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٦.

(٥) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٩ ص٤١٢.

(٦) هذا الجامع يقع خارج باب زويله، أنشأه الطنبغا المادرينيّ، أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأشرف على بنائه المعلم ابن السيوفيّ رئيس المهندسين في الأيام الناصرية (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٠٥، ٢٢٤).

(٧) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤ ص٢٥٠ ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٤٢٩.

وهناك أيضا، البدر محمد بن ناصر الدين المعروف بابن المخلطة (ت ٨٧٠هـ/١٤٦٥م) الذي أعاد بالصالحية ودرّس بأم السلطان[١] والقمحية[٢]، والبدر أبو الفضل محمد بن التقي أبي الخير الذي أعاد بمدرسة أم السلطان ودرّس بمدرسة ألجاى[٣] التي تجاهها من التبانة[٤]. والعلاء أبو الحسن علي بن محمد البلقيني الشافعي (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) الذي كان معيدا في الفقه بالقبة المنصورية وفي الحديث بالقبة البيبرسية ومُدرّسا للفقه بالسكرية بمصر[٥].

كما جمع البرهان إبراهيم بن عبد الرحمن الكركي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م) بين الإعادة بالسيوفية والمهمندارية وبين التدريس

---

(١) مدرسة أم السلطان: تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، أنشأتها الست بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٥٠).

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠ ص٩. والمدرسة القمحية أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالفسطاط بجوار جامع عمرو، للفقهاء المالكية، سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م. (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص١٩٣ـ

Lane Poole (S.):A history of Egypt in the middle ages, p. 204.

(٢) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص١٣٨.

(٣) هو الأمير سيف الدين ألجاي بن عبد الله اليوسفيّ، تنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بمصر، فعظم قدره واشتهر ذكره، وتحكم في الدولة حتى موته سنة خمس وسبعين وسبعمائة، والمدرسة المذكورة أنشأها سنة ثمان وستين وسبعمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٤٩).

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩ ص٢٢٧.

(٥) السخاوي: المصدر نفسه، ج٥ ص٣١٠.

بمدرسة أم السلطان، والمحمودية[١] والأبوبكرية والاينالية[٢] وغيرها، ثم أخرج من وظائفه تدريس الاينالية ونظر المهمندارية مع الإعادة بها للشريف المقسي الوفائي[٣].

يرى الدكتور عبد اللطيف إبراهيم[٤] أن شغل المعيد في مدرسة ما وظيفة مدرس في أخرى راجعا إلى اختلاف المركز الأدبي والمستوى العلمي للمدرسة التي يُدرّس فيها، ويوافقه الرأي الدكتور محمد عبد الستار عثمان[٥] مضيفًا أن ذلك قد يكون راجعا أيضا إلى تأثير مرتبات المدرسين والطلاب بما كانت تصاب به الأوقاف أحيانا من العدوان عليها وامتداد أيدي السوء إليها وخاصة في عهد الجراكسة.

---

(١) المدرسة المحمودية: كانت تقع بخط الموازنيين خارج باب زويلة، أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن عليّ الاستادار في سنة سبع وتسعين وسبعمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٤٢).

(٢) المدرسة الاينالية: خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية ، أوصى بعمارتها الأمير سيف الدين اينال اليوسفيّ، فابتدأ بعملها في سنة أربع وتسعين وسبعمائة (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٥٢).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج١ ص٦١، ٦٣. والشريف المقسي: هو محمد بن علي بن محمد الشمس أبو الوفاء بن النور الحصني الأرميوني (بفتح الهمزة نسبة إلى أرميون بالقرب من سخا) القاهري المقسي الحنفي الشريف إمام القجماسية. ولد تقريبا سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م بالقاهرة ونشأ بها، وكان أحد الأئمة والعلماء المشهورين بها (السخاوي: المصدر نفسه، ج٨ ص٢١٥، ٢١٦).

(٤) نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، (التعليقات العلمية والمصادر)، مجلة كلية الآداب، مجلد ٢٨، ص١٦٠.

(٥) نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٤.

وعلاوة على ذلك يمكن اعتبار ممارسة بعض المعيدين مهنة التدريس أثناء الإعادة فرصة لتدريبهم على التدريس باعتبار أنهم مدرسيّ المستقبل، ومن غير المستبعد أن بعض المدرسين كانوا يتنازلون لمعيديهم عن تدريس إحدى المدارس الصغرى أو حديثة الإنشاء من قبيل إعدادهم والاطمئنان على أنهم صاروا مؤهلين لوظائف التدريس وقادرين على القيام بأعبائها، ويمكن أن نلمح ذلك فيما أورده السخاوي[1] في سياق حديثه عن عبد الله الجمال الأردبيلي الحنفي بقوله: "كان أحد المقررين بالجانبكية[2] والمعيدين بالصرغتمشية، بل ورغب له (أي تنازل له) شيخها عن تدريس المسجد الذي جدده الظاهر[3] بخان الخليلي، ودرّس مدة إلى أن مات في شعبان سنة تسع وستين (أي ٨٦٩هـ/مارس ١٤٦٥م) واستقر بعده فِي التدريس والطلب الأمشاطي[4]، وفِي الإعادة خير الدين الشّنشي[5]".

وعلى أية حال ليس ثمة شك أن شغل بعض المعيدين وظائف التدريس بجانب الإعادة بمدارس مصر المملوكية يعكس المستوى العلمي المتقدم للمعيدين آنذاك،

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥ ص٧٤.

(٢) المدرسة الجانبكية: بالشارع عِنْد القربيين خَارج بَاب زويلة، أنشأها جَانبك الأشرفي برسباي، اشتراه برسباي صغيرا، ورقّاه في المناصب، حتى صارت غالب الأمور بيده، توفي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م (السخاوي: المصدر نفسه، ج٥ ص٥٤، ٥٥ وج٦ ص١٠٧ وج٨ ص١٢٥).

(٣) أي السلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥ ـ٨٧٢هـ/١٤٦٠ـ ١٤٦٧م).

(٤) هو الشمس الأمشاطي قاضي الحنفية وشيخ المدرسة البرقوقية (السخاوي: المصدر نفسه، ج٥ ص١٩٠ وج٦ ص١٨٨ وج٧ ص٥٢).

(٥) هو مُحَمَّد بن عمر بن مُحَمَّد بن مُوسَى، خير الدّين أَبُو الْجُود بن نَاصِر الدّين، الحنفي، ويعرف بالشّنشي، مات سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م (السخاوي: المصدر نفسه، ج٨ ص٢٦٥، ٢٦٦).

ويُعدّ مؤشرا من المؤشرات الدالة على مساهمتهم في تنشيط الحركة العلمية وإثرائها، وليس أدل على تلك المساهمات من قيامهم بسد العجز الذي واجهته بعض المدارس في العصر المملوكي من جراء نقص المدرسين بها أحيانا، فكان إذا خلت مدرسة من المدرسين لسبب من الأسباب قام المعيدون بالتدريس بها لتستمر الدَولَبة العلمية في حراك دائم دونما توقف، يشهد على ذلك ما حدث في المدرسة الصلاحية أو الناصرية الثانية، المجاورة لضريح الشافعي،عندما خلت من المدرسين ثلاثين عاما، ابتداء من سنة ٦٤٨هـ/١٢٤٨م مع بداية الدولة المملوكية، ونهض المعيدون فيها بأعباء التدريس خلال تلك الفترة، وحلوا محل المدرسين، وأورد النويري[١] ذلك بقوله: "وكانت هذه المدرسة، خلت من مدرس، من ثلاثين سنة واكتفيّ فيها بالمعيدين، وهم عشرة، واستمر الحال على ذلك، إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة، فولي تدريسها قاضي القضاة تقي الدين بن رزين، عند عزله من القضاء وقرر له نصف المعلوم".

وهذه الحكاية معروفة ومشهورة لدى كثير من مؤرخي الدولة المملوكية، وأوردها المقريزي[٢] بالمضمون نفسه، ونقلها عنه السيوطي[٣]، كما أوردها ابن حجر العسقلاني[٤] بصيغة مغايرة بعض الشيء، إذ يقول:" وكانت هذه المدرسة قد عطلت نحو ثلاثين سنة من المُدَرّس. لكن بعض الطلبة يلازمها مع المعيد، ويقرر لهم. وكانت عدتهم

(١) نهاية الأرب، ج٣١ ص٩٦.

(٢) الخطط، ج٤ ص٢٥١.

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢ ص٢٢٥.

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٥١.

عشرة أنفس إلى أن سعى تقي الدين ابن رَزِين، فقُرر في تدريسها بنصف المعلوم، فباشرها إلى أن مات".

والذي يفهم من كلام ابن حجر أن معيد واحد هو الذي اضطلع بأمر تدريس تلك المدرسة خلال الثلاثين سنة المذكورة، وأن عدد الطلاب بها كان عشرة طلبة، وهذا أمر يصعب على العقل التسليم به هنا، ويبدو أنه حدث خطأ في النسخ أو النقل، فبدلا من أن يُكتب (يلازمها مع المعيدين) كُتب "يلازمها مع المعيد"، وبذلك يكون بالأحرى أن "عشرة أنفس" التي أوردها ابن حجر عائدة على المعيدين وليست على الطلبة، والظاهر أن ابن حجر نفسه كان يشك في تلك الرواية من حيثية الأعداد الواردة بها، إذ يقول في نهاياتها: "قرأت ذلك بخط شمس الدين الجَزَريّ في تاريخه، وأرخ ذلك في عاشر شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وستمائة".

٤ـ المساهمة في حركة التصنيف والتأليف في العصر المملوكي

شهد العصر المملوكي نشاطا موسعا في حركة التصنيف والتأليف، وقد تميز ذلك العصر بظاهرة التأليف الموسوعي، كما تميز بعدم التخصص في الكتابة في فرع بعينه من فروع المعرفة، والمتصفح للمصادر العربية يجدها تعج بأسماء مصنفات ومؤلفات علماء ذلك العصر في علوم ومجالات شتى، منها مؤلفات في العلوم الدينية، كالقراءات والفقه والحديث والتفسير، وأخرى في العلوم اللغوية، كالنحو والصرف والأدب والبيان، وثالثة في العلوم الفلسفية، فضلا عن مؤلفات في العلوم الطبيعية والتطبيقية، كالفلك والهندسة والكيمياء والطب.

وهذا معناه أن المصنفات والمؤلفات زادت في العصر المملوكي كمّا ونوعًا، وتميزت بتعدد اتجاهاتها وتلون أغراضها، فمنها ما أُلّف بناء على

رغبة الحكام والأعيان[1] أو لتقديم النصح والإرشاد لهم، ومنها ما كُتب بشأن التأريخ للحوادث الجارية في عصر المؤلف وفي العصور السابقة عليه، ومنها ما خُصص لوصف البلدان، أو للتراجم، أو لسير طبقة من الطبقات جيلا بعد جيل، كطبقة الفقهاء أو الأدباء أو العلماء أو الأطباء أو الصنّاع، ومنها ما تم تخصيصه لشرح الكتب التراثية أو اختصار بعضها أو تذييلها أو كتابة الحواشي والتقارير عليها، هذا فضلا عمّا ألّفه الفقهاء بشأن المسائل والنوازل المعاصرة أو المشكلات التي تطرأ في المجتمع والعادات التي تنتشر فيه، وهي ما يعرف بكتب الفتاوى الفقهية.

ومجمل القول: إن حركة التصنيف والتأليف في العصر المملوكي اتسمت بشمولية الأغراض المنشودة من التأليف، أو بمعنى آخر سلكت كل مسالك التآليف الهادفة، وهي مسالك ذات سبعة أطر، حددها المؤرخ التركي حاجي خليفة[2] (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) بقوله: "إن التأليف على: سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها. وهي: إما شيء لم يسبق إليه، فيخترعه. أو شيء ناقص يتممه. أو شيء مغلق يشرحه. أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه. أو شيء متفرق يجمعه. أو شيء مختلط يرتبه. أو شيء أخطأ فيه مصنفه، فيصلحه".

---

(١) من ذلك على سبيل المثال: كتاب "التبر المسبوك في ذيل السلوك"، الذي بيّن شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) في مقدمته أنه ألّفه إجابة لرغبة الأمير يشبك الدواداري، وهو تكملة لتاريخ المقريزي "السلوك لمعرفة دول الملوك". (انظر، السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د. ت)، ص٥).

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د.ت)، ص٣٥.

وعلى أية حال فمهما بلغت حركة التصنيف والتأليف في العصر المملوكي وتلونت أغراضها وتشعبت دروبها، فالذي يعنينا هنا الوقوف على مساهمة المعيدين فيها، بوصفهم من علماء ذلك العصر[١]، وذاك أمر غير يسير، فالمتتبع للمصنفات والمؤلفات التي ينتمي أصحابها إلى العصر المملوكي، والتي وردت جلّها في كتب التراجم والطبقات، يدرك مدى صعوبة انتقاء ما يخص المعيدين منها، لأن هذه الأخيرة ترد بالمصادر ضمن جملة ما ألّفه العلماء في حياتهم دونما إشارة إلى ما يدل على أنها ألفت في فترات شغلهم الإعادة بالمدارس، إلا في حالات نادرة. وبناء عليه تنصب المحاولة هنا على تتبع الإشارات والأمثلة التي لا ريب في نهوضها دليلا على مساهمة معيديّ مدارس مصر في حركة التصنيف والتأليف في العصر المملوكي.

وأول ما يقابلنا من هذه الإشارات بالمصادر، تأليف ظهير الدين التزمنتي (ت٦٨٢هـ /١٢٨٣م) المعيد بمدرسة الشافعي كتابا بعنوان: "شرح مشكل الوسيط"[٢]. وقيام الحسين بن أبي بكر بن عياض (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) باختصار "تفسير الثعلبي"[٣] اختصارا حسنا، عندما كان يتولى الإعادة بالمدرسة النجمية بأسوان، وعنه أخذ طلبة أسوان في زمنه[٤].

---

(١) Manjikian (Sevak Joseph): Education and Training Under the Mamluks, p.59.

(٢) ابن قاضي شهبة:طبقات الشافعية،ج٢ص٢١٩. وكتاب "الوسيط" الذي شرحه التزمنتي، هو كتاب في فروع الشافعية للشيخ أبي حامد الغزالي(ت٥٠٥هـ/١١١١م)، وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية (حاجي خليفة:كشف الظنون،ج٢ ص٢٠٠٨).

(٣) المقصود به "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، النيسابوري. (ت٤٢٧هـ/١٠٣٦م) (حاجي خليفة: المصدر نفسه، ج٢ ص١٤٩٦).

(٤) الأُدْفوي: الطالع السعيد، ص٢٢١، ٢٢٢.

ومن الإشارات الأخرى المهمة في هذا الصدد، تلك التي أومأت إلى تصنيف عماد الدين الدمنهوري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٥م) المعيد بالمدرسة الصالحية بالقاهرة كتابه المشهور في الاعتراض على كتاب "التنبيه"[١]، والتنبيه كتاب في فروع الشافعية للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م) وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة، بين الشافعية، وأكثرها تداولا، بدأ الشيرازي في تصنيفه في أوائل رمضان سنة ٤٥٢هـ[٢]/أواخر سبتمبر ١٠٦٠م. ويبدو أن كتاب الاعتراض على التنبيه الذي ألّفه عماد الدين الدمنهوري عكَس جراءة غير عادية لمؤلفه، مما كان سببا في توجيه النقد إليه من بعض المطلعين عليه حتى في القرون التالية عليه، كالقول بأن مؤلفه "أساء التعبير في مواضع منه"[٣]. وأنه: "هو المغري بالاعتراض على الشيخ في المهذب والتنبيه، لا جرم أن الله أخمل ذكره"[٤]. ومع هذا، فذاك الكتاب يكشف النقاب عن نضج فكري وعلمي للمعيدين في تلك العصور، كما يكشف عن قدرتهم على التأليف وخوض المعتركات العلمية الثقافية الكبرى عبر المؤلفات.

ونقرأ في المصادر أيضا عن عبد الله بن شرف المرزوقي (توفّي قبل سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م بقليل أو بعدها بقليل)[٥]، الذي كان معيدا بالمشهد الحسيني، وألّف "شرحا للتنبيه" وأنفذه إلى الشيخ بهاء الدين بن النحاس النحوي، فكتب

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية،ج١ص٢٦٩ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٧ ص٦٠١.
(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١ ص٤٨٩.
(٣) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٢٦٩ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧ ص٦٠١.
(٤) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص١٨٩ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٧٢.
(٥) ابن السبكي: المصدر نفسه، ج١٠ ص٤٣.

عليه نثرا يصفه وأعاده، فأنفذ المرزوقي أبياتا يشكره على ذلك.[1] وفي هذا ما يوحي بأن المعيدين كانوا يعرضون مؤلفاتهم على الأساتذة أو المشايخ الكبار بغرض مراجعتها وأخذ أرائهم فيها.

كما نقرأ عن نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد الله الطوفي الصرصري ثم البغدادي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) الذي جاء إلى مصر سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وأقام بالقاهرة مدة، وولي الإعادة بالمدرسة الناصرية والمنصورية، وصنّف تصانيف كثيرة. ويقال: إن له بقوص خزانة كتب من تصانيفه فإنه أقام بها مدة. ومن تصانيفه: "بغية السائل فِي أمهات المسائل" فِي أصول الدين، و"قصيدة فِي العقيدة وشرحها"، و"مختصر الروضة" فِي أصول الفقه، وشرحه فِي ثلاث مجلدات، و"مختصر الحاصل" فِي أصول الفقه، و"القواعد الكبرى"، و"القواعد الصغرى"، و"الإكسير فِي قواعد التفسير"، و"الرياض النواضر فِي الأشباه والنظائر"، و"بغية الواصل إِلَى معرفة الفواصل"، ومصنف فِي الجدل، وآخر صَغِير، و"درء القول القبيح فِي التحسين والتقبيح"، و"مختصر المحصول"، و"دفع التعارض عما يوهم التناقض فِي الكتاب والسنة"، و"معراج الوصول إِلَى علم الأصول" فِي أصول الفقه، و"الرسالة العلوية فِي القواعد العربية"، و"عناية المجتاز فِي علم الحقيقة والمجاز"، و"الباهر في أحكام الباطن والظاهر"، و"مختصر العالمين" في جزئين، فيه: أن الفاتحة متضمنة لجميع القرآن، و"الذريعة إلى معرفة أسرار الشَّرِيعَة"، و"الرحيق المسلسل في الأدب المسلسل"،و"تحفة أصل الأدب في معرفة لسان العرب"، و"الانتصارات الإسلامية في دفع شبه النصرانيَة"، وتعاليق على الرد على

(١) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٢ ص٦٨١، والوافي بالوفيات، ج١٧ ص١١٠– ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٤٢.

جماعَة من النصارى، وتعاليق على الأناجيل وتناقضها، و"شرح نصف مختصر الخرقي"[1] فِي الفقه، و"مقدمة في علم الفرائض"، و"مختصر التبريزي"، و"شرح مقامات الحريري" في مجلد، و"موائد الحيس في شعر امرئ القيس"، و"شرح الأربعين للنووي"، واختصر كثيرا من كتب الأصول، ومن كتب الحديث أيضا ولكن لم يكن له فيه يد، ففي كلامه تخبيط كثير، وله نظم كثير رائق، وقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدة طويلة في مدح الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه[2].

وهناك أيضا الشريف شهاب الدين الحسيني المعروف بابن قاضي العسكر الذي باشر الإعادة بمدرستيّ الإمام السيد الحسين والمدرسة الفخرية عند نجم الدين القَمُوليّ سنة ٧١٤هـ /١٣١٥م وكتب في الشعر والنثر والخطابة[3]. وكذلك فخر الدين عثمان الذي ذكره المقريزي[4] في سياق حديثه عن وفيات سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م بقوله: "ومات فخر الدين عثمان بن بلبان بن مقاتل معيد المدرسة المنصورية بين القصرين، وكان فاضلاً، حدث وروى وحصل وكتب وخرج، ومات عن اثنتين وخمسين سنة".

---

(١) كتاب الخرقي: هو كتاب في فروع الحنبلية، لأبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي، الحنبلي، الدمشقي. المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، والحنابلة يتبركون بقراءته في أيام الوباء (حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج٢ ص١٤١٥).

(٢) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، ج٤ ص٤٠٤: ٤٠٩ ـ العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢ ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣ ص٣٣.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ ص٥٢٩.

ومن المعيدين الآخرين المشار إليهم بالمساهمة في التأليف والتصنيف، نور الدين الإسنائي، إبراهيم بن هبة الله بن علي (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) الذي "أعاد بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، وأفاد وصنّف تصانيف حسنة بليغة في علوم كثيرة"[١]. وسراج الدين الأرمنتي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م) الذي أعاد بمدرسة ابن زين التُّجار وصنّف كتابا سماه "المسائل المهمة في اختلاف الأئمة"، وكتاب "الجمع والفرق"[٢]. ومنهم أيضا أبو الفتح فتح الدين اليعمرى (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) الذي لازم ابن دقيق العيد وتخرج عليه في أصول الفقه وأعاد عنده، وصنّف في السيرة كتابه المسمى "عيون الأثر"، وشرع لشرح "الترمذي"، لكنّه لم يكمله[٣].

ومنهم كذلك محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدرة المعروف بابن القمّاح القرشي المصري (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) الذي أعاد بالمدرسة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقرافة خمسين سنة، واختصر كتبا في الفقه وجمع مجاميع كثيرة بخطه وبخط غيره، تقارب العشرين منها وفيات جماعة من المتأخرين[٤].

وهناك بدر الدين ابن الحبّال (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) الذي أعاد بعدة مدارس وصنّف تصانيف عديدة منها "كتاب الفنون" و"شرح الخرقي"[٥]. وكذلك الشهاب الحلبي المعروف بالنحوي وبابن السمين (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، وهو من

---

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٨٢، ٨٣ .

(٢) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٧٣١ ــ الإسنوي: المصدر نفسه، ج١ ص٨٤ .

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤ ص٢٠٩.

(٤) ابن قاضى شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص٦٦، ٦٧.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٢٦٩.

المعيدين الذين ألّفوا وصنّفوا في أكثر من تخصص، وكان "فقيها بارعا في النحو والتفسير وعلم القراءات يتكلم في الأصول، خيّرًا، ديّنًا، شرح "تسهيل ابن مالك" شرحا مختصرا مأخوذًا من شرح أبي حيان (الغرناطي)، وصنّف إعرابًا على القرآن الكريم، مادته أيضا من "تفسير" شيخه المذكور، إلا أنه زاد عليه وناقشه في مواضع مناقشة حسنة، وصنّف "تفسيرا" جيدا، وشرحًا على الشاطبية"[1].

ولا يغرب عن البال هنا، كمال الدين أبو العباس أحمد بن عز الدين النشائي (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) الذي أعاد بالظاهرية والكهارية، وصنّف التصانيف المفيدة الجامعة المحررة، منها: "المنتقى"، و"جامع المختصرات"، و"النكت على التنبيه"[2]، وأسلوبه في تلك المصنفات وغيرها على حد وصف ابن العماد الحنبلي[3]، قوي، مختصر جدا، يصعب فهمه، مما جعل كثيرا من الناس يحجمون عن مصنفاته.

ومن الأمثلة الأخرى الواضحة على مساهمة المعيدين في حركة التصنيف والتأليف، ما ورد عن الجلال عبيد الله بن عوض الأردبيلي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) الذي كتب وقتما كان معيدا بالمدرسة الصرغتمشية

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ص٢٨٨، ٢٨٩ـ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص٢١ـ السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص٤٠٢ وحسن المحاضرة، ج١ ص٤٦٥.

(٢) الإسنوي: المصدر نفسه، ج٢ ص٢٨٦ ـ ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج٣ ص١٣ ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٣١٢.

(٣) شذرات الذهب، ج٨ ص٣١٢.

تقاريرا أو حواشي على "الْهِدَايَة"(١) و"الْمجْمَع"(٢) و"الكشاف"(٣) وغيرها من الكتب، ووقفها بالمدرسة المذكورة، ليطّلع عليها الطلبة ويستفيدوا منها، وقد اطّلع المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(٤)(ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) على كثير منها ووصفها بأنها حواشي "مفيدة متقنة".

---

(١) هناك أكثر من كتاب في الفقه يسمى الهداية، واحد في الفروع للشافعية وأخر في الفروع للحنابلة وثالث في الفروع للحنفية، والمقصود بالكتاب المذكور هنا هو كتاب الهداية في الفروع للحنفية، لشيخ الإسلام، برهان الدين علي بن أبي بكر المرغياني، الحنفي، المتوفى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص٢٠٣١، ٢٠٣٢) وبنينا ذلك الاستنتاج على ما أورده السخاوي عن عبيد الله بن عوض الأردبيلي من أنه كان شافعي المذهب ثم تحول إلى المذهب الحنفي، على يَد يلبغا، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُول: من ترك مَذْهَب الشَّافِعِي وتحنّف أعْطيته خَمْسمِائَة وَجعلت لَهُ وَظِيفَة، فَفعل ذَلِك جمَاعَة مِنْهُم صَاحب التَّرْجَمَة، وعمر بن عَليّ السراج قاري الْهِدَايَة، وقد أشار السخاوي إلى ذلك مرة أخرى عند ترجمته للسراج قاري الْهِدَايَة (انظر، الضوء اللامع، ج٥ ص ١١٧، ١١٨ و ج٦ ص١٠٩).

(٢) المقصود به كتاب "مجمع البحرين وملتقى النهرين"، في فروع الحنفية للإمام مظفر الدين أحمد بن علي بن ثعلب، المعروف بابن الساعاتي، البغدادي الحنفي، المتوفي سنة ٦٩٤. (حاجي خليفة: المصدر نفسه، ج٢ ص١٥٩٩، ١٦٠٠).

(٣) المقصود به كتاب "الكشاف عن حقائق التنزيل"، للإمام العلامة، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، المتوفي سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م (حاجي خليفة: المصدر نفسه، ج٢ ص١٤٧٥).

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥ ص ١١٧.

ولعله بات واضحا بعد عرض الإشارات والأمثلة السابقة أن معيديّ مدارس مصر المملوكية أدلوا بدلوهم في حركة التصنيف والتأليف في العصر المملوكي، بمصنفات ومؤلفات كان من شأنها المساعدة في إثراء الحياة العلمية وتنشيطها، سواء كانت تلك المصنفات مبتكرة، أو شروح لكتب قديمة، أو اختصارات لها، أو كتابة حواشي عليها، أو ما شابه ذلك من صنوف التأليف في مختلف العلوم، كالتأليف في علم القراءات والفقه والتفسير والحديث والنحو واللغة وغير ذلك.

خامسًا: رواتب ومنح المعيدين ودور الأوقاف في دعمها

لعبت الأوقاف في مصر المملوكية دورا مهما في دعم نظام الإعادة واستمراره، فمن ريعها كانت تدفع رواتب المعيدين ــ وغيرهم من الموظفين ــ بالمدارس، وكانت هذه الرواتب تصل إلى أصحابها سنويا أو شهريا، وتصرف لهم بصفة منتظمة حسب شرط الواقف(١).

وفي الغالب كانت تصرف الرواتب عن كل شهر في مستهل الشهر الذي يليه، وفي حالات نادرة كان يتأخر صرفها أو تتوقف، وذلك عندما لا يفي ريع الوقف بنفقات مصالح المنشأة التي وقف عليها، مثلما حدث وتأخرت رواتب المعيدين بالجامع الطولوني خمسة أشهر في مدة ناظر أوقافه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وذلك لضيق ريع الوقف عن المرتب عليه، فأراد قاضي القضاة اختصار بعض المرتبين، ليتسع الريع على من بقي، وعزم على إلغاء بعض الدروس كالطب وغيره، فرفع المتضررون من ذلك الشكاوى إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ففوض النظر فيه وفي أوقافه للقاضي كريم الدين عبد الكريم (ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها) في شهر ربيع الأول سنة

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٣٨، ١٣٩.

٧٢١هـ/مارس ١٣٢١م، فعمل كريم الدين على توفير الأموال بطرق مختلفة وامتنع عن صرف الرواتب المتأخرة للمدرسين والمعيدين والطلبة، وأحسن إدارة أوقاف الجامع المذكور فزاد المال وفاض المتحصل عن كفاية المرتبين عليه، واستمر الصرف لهم كل شهر في مستهل الشهر الذي يليه[١].

وأحيانا كان ناظر الوقف يقتطع من رواتب المعيدين ولا يصرفها لهم كاملة، ليوفرها لنفسه، وقد سطّر لنا النويري مثلا على ذلك في سياق طرحه لوفيات سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م عند حديثه عن وفاة الطواشي الأمير شجاع الدين عنبر أمير لالا الخازندار، وزمام الأدر السلطانية[٢]، بقوله: "ولمّا وُلي ـ أي الأمير عنبر ـ نظر المدرسة الناصرية حجب كتاب وقفها أن يطلع عليه أحد من مستحقي الوقف، ولم يسلك فيها شرط واقفها، وصرف للفقهاء والمعيدين نصف ما شرط لهم في كتاب الوقف، واقتطع مما صرفه أولا في كل سنة ثلاثة أشهر، فلما مات وفَوَّض السلطان[٣] نظر المدرسة لنائبه الأمير سيف الدين أرغن الناصري أظهر كتاب الوقف، وتتبع ما شرطه السلطان الواقف فيه، وصرف بمقتضاه، وزاد عدة الفقهاء، وضاعف معلومهم، أثابه الله تعالى"[٤].

وعن مقادير رواتب المعيدين في العصر المملوكي فقد وردت بوثائق وقف ذلك العصر ومصادره أمثلة متنوعة لها، فعلى سبيل المثال عندما

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٣ ص١٥.

(٢) زمام الأدر أو الدور السلطانية وظيفة تسمى"زمامية الدور السلطانية" وصاحبها هو كبير الخدم (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٧٣). وأمير لالا = أمير+ لالا، ومعنى لالا: المُرَبّي من الخدم (النويري: المصدر نفسه ، ج٣٣ حاشية ص٦٩).

(٣) أي الناصر محمد بن قلاوون، خلال سلطنته الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/١٣٠٩ـ ١٣٤٠م).

(٤) النويري: المصدر نفسه، ج٣٣ ص٧٨.

رتب السلطان المنصور قلاوون درسا للتفسير بالقبة المنصورية بعد الانتهاء من بنائها سنة٦٨٢هـ/١٢٨٣م قرر للمعيد بذلك الدرس في كل شهر أربعين درهماً، ومثلها لمعيد درس الحديث، هذا في حين أنه رتب لكل معيد من المعيدين الثلاثة بالمدرسة المنصورية في كل شهر خمسة وسبعين درهماً[١].

وعندما اكتملت عمارة المدرسة الناصرية بين القصرين وبدأت الدراسة بها سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، صرف الناظر للمعيدين والفقهاء بكل إيوان من الأواوين الأربعة على مذهبه من جملة ما شرط لهم في كتاب الوقف، فكان راتب المعيد في كل شهر ثلاثين درهما[٢].

ولمّا جدد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ــ أستاذ الدار العالية ــ بناء الجامع الحاكمي بالقاهرة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية وقف عليه بعض أملاكه ورتب به دروسا للفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث، قرر لكل معيد من المعيدين بهذه الدروس خمسين درهما في كل شهر[٣].

أما في المدرسة الصرغتمشية فكان يُصرف لكل معيد من المعيدين الثلاثة بها في كل شهر سبعون درهم نقرة[٤]، ورطلان ونصف رطل زيت طيب (أي زيت

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١ ص١١٢.

(٢) النويري: المصدر نفسه، ج٣٢ ص٧٥.

(٣) النويري: المصدر نفسه، ج٣٢ ص٨٥.

(٤) الدراهم النقرة هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٣٤).

زيتون)، ورطلان صابون[١]. وفي المدرسة البرقوقية[٢] كان يصرف للمعيد ثلاثون درهم في الشهر، بنَص وثيقة وقفها المؤرخة بسنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م أو ٧٩٧هـ/١٣٩٥م[٣].

والملاحظ من خلال الأمثلة السابقة أن رواتب المعيدين اختلفت من مدرسة إلى أخرى في مصر المملوكية، والسبب في ذلك بطبيعة الحال راجع إلى تقدير مؤسس المدرسة أو الواقف لتلك المرتبات التي يتحكم فيها مقدار ما تمّ وقفه على المنشأة من أوقاف، والذي يجيء متأثرا بما يمتلكه الواقف من عقار وأراض يوقفها على هذه المنشآت أو تلك[٤].

وعند مقارنة هذه الرواتب برواتب الأساتذة نجد ما كان يتحصل عليه المعيد يقل كثيرا عما كان يأخذه الأستاذ في كل شهر، فمن خلال إطلالة سريعة في

---

(١) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، ص١٤٩.

(٢) هي المدرسة أو الخانقاة التي أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين بالقاهرة، وبدأ بناؤها في سنة ست وثمانين وسبعمائة، وتولى عمارتها الأمير جهاركس الخليليّ، وأورد المقريزي إشارات عنها في مواضع متفرقة، مرة باسم "المدرسة الخانقاة" وأخرى باسم مدرسة برقوق العظمى وثالثة باسم "الخانقاة الظاهرية" ورابعة باسم "المدرسة الظاهرية المستجدّة" (انظر، الخطط، ج٢ ص٣٣٨ وج٣ ص٨٤، ١٣٦، ١٥٢، ١٥٧ وج٤ ص٢٧٩).

(٣) Haarmann, Ulrich: "Mamluk Endowment Deeds as a Source for the History of Education in Late Medieval Egypt", in al-Abhath/ American University Of Beirut, Vol. 28, 1980, PP.35, 37.

(٤) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٦.

صفحات الوثائق والمصادر ذاتها التي سقنا من خلالها الأمثلة السابقة، يتبين أن راتب الأستاذ في القبة المنصورية كان ١٣٣ درهما وثلث في كل شهر، هذا في الوقت الذي كان فيه راتب المعيد بها ٤٠ درهما، وفي المدرسة المنصورية كان راتب الأستاذ ٢٠٠ درهم وراتب المعيد ٧٥ درهما، أما في الجامع الحاكمي فكان الأستاذ يأخذ ١٣٠ درهما والمعيد ٥٠ درهما، وفي المدرسة الصرغتمشية وصل راتب الأستاذ إلى ٣٠٠ درهم و٥ أرطال زيت و٥ أرطال صابون، أما راتب المعيد بها فكان ٧٠ درهما ورطلين ونصف رطل زيت ورطلين صابون. وفي المدرسة البرقوقية كان راتب الأستاذ ٣٠٠ درهم وراتب المعيد ٣٠ درهم[١] فقط.

وهذا الفارق بين راتبيّ المعيد والأستاذ كان أمرا طبيعيا، على اعتبار أن المعيد ما هو إلا طالب علم متقدم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولو قارنّا راتب المعيد بما كان يتحصل عليه الطالب العادي لوجدنا راتب المعيد يزيد كثيرا على ما كان يصرف لكل طالب، ويكفي أن ندلل على ذلك بما كان يصرف في القبة المنصورية للمعيدين وللطلبة، حيث كان يصرف لكل معيد ٤٠ درهما في حين كان يصرف لكل طالب ١٠ دراهم[٢]، فلا يُسوى بين الأستاذ والمعيد والطالب في رواتبهم، وإنما يعطى كل واحد منهم حسب الدرجة والمنفعة، وفي ذلك يقول ابن تيمية[٣]: "وَأَمَّا هَذِهِ الْمَوَاضِعُ فَالْأَخْذُ فِيهَا بِالْحَاجَةِ وَالْمَنْفَعَةِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْأَصْنَافِ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً؛ بَلْ الْعَطَاءُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ وَالْمَنْفَعَةِ كَمَا كَانَ

(١) Haarmann, Ulrich: Mamluk Endowment Deeds ..., PP.36, 37.

(٢) وذلك لأن الطلبة بها "عدتهم ثلاثون (نفرا)، لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم" (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١ ص١١١).

(٣) مجموعة الفتاوى، ج١٩ ص١٤٠.

أَصلُ الاستِحقَاق مُعَلَّقًا بِذَلِكَ...وَمِثْلُهُ يُقَالُ فِي كَلَامِ الْوَاقِفِ وَالْمُوصِي وَكَانَ بَعْضُ الْوَاقِفِينَ قَدْ وَقَفَ عَلَى الْمُدَرِّسِ وَالْمُعِيدِ وَالْقَيِّمِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ؛ وَجَرَى الْكَلَام فِي ذَلِكَ فَقُلْنَا: يُعْطِي بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ فَطَلَبَ الْمُدَرِّسُ الْخُمُسَ بِنَاءً عَلَى هَذَا الظَّنِّ؛ فَقِيلَ لَهُ: فَأَعْطِي الْقَيِّمَ أَيْضًا الْخُمُسَ لِأَنَّهُ نَظِيرُ الْمُدَرِّسِ فَظَهَرَ بُطْلَانُ حُجَّتِهِ".

وليس أدل على صرف مرتبات المعيدين وغيرهم من الموظفين بالأحرى حسب الحاجةِ والمنفعةِ في تلك الآونة من أن مرتب المعيد كان من الممكن أن يتحصل عليه أحد العمال الكادحين من أرباب الصنائع والأُجَراء أصحاب المهن، وعلى الأخص في الفترات التي تعقب انتشار الأمراض والأوبئة، كالطاعون مثلا، حيث تتضاعف أجورهم لموت أكثرهم، "بحيث لم يوجد منهم الواحد إلا بعد تطلُّب وعناء"(١)، ولذا نجد مثلا المعيد وعامل النظافة بالمدرسة كانا يتساويان في المرتب في مثل تلك الظروف، نظرا للحاجة الماسة إلى الأخير عقب انتهاء الطاعون للتخلص من القاذورات والقمامة(٢) وجثث الموتى المتعفنة وغيرها.

وعلى أية حال فعلاوة على رواتب المعيدين الشهرية كان يصرف لهم ولغيرهم من الموظفين والطلاب رواتب أخرى إضافية في المناسبات الدينية المختلفة مثل يوم عاشوراء وشهر رمضان وعيديّ الفطر والأضحى، وذلك للتوسعة عليهم في تلك المناسبات، ففي يوم عاشوراء توزع عليهم "العاشوراء

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق ياسر صالحين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩، ص٦٦، ٦٧.

(٢) Haarmann, Ulrich: Mamluk Endowment Deeds ..., p. 37.

المعمولة من حب القمح"، وفي شهر رمضان يصرف لهم كثير من الأشياء العينية لاسيما من السكر، الذي تتضاعف كمية المستهلك منه في هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى، وقد حددت لنا وثائق الأوقاف تفصيلا نصيب كل فرد من أرباب الوظائف وغيرهم ممن يوزع عليهم السكر في ذلك الشهر، وحسب ما جاء بوثيقة وقف السلطان حسن كان نصيب المعيد من "السكر الطيب الأبيض النقي" في ذلك الشهر خمسة أرطال(١). أما وثيقة وقف المدرسة الصرغتمشية فحددته بثلاثة أرطال(٢).

وإلى جانب السكر شملت التوسعة على المعيدين وغيرهم من الموظفين في شهر رمضان أيضا توزيع الأطعمة المجهزة طبقا لشرط الواقف، كالخبز واللحم والأرز والعسل وحب الرمان وغير ذلك، كما كان يصرف لهم في عيد الفطر الكعك والتمر والبندق(٣).

أما في عيد الأضحى فكانت توزع عليهم اللحوم، وورد ذلك في وثيقة وقف المدرسة الصرغتمشية في عبارة نصها: "ويصرف في عيد الأضحى من كل سنة ثمن راسين من البقر، يذبح ذلك ويفرق على المعيدين والفقهآ وأرباب الوظايف بالمدرسة المذكورة على ما يراه الناظر في ذلك"(٤).

ولم يقف أمر التوسعة على المعيدين ــ أو المنح بالمعنى الحديث ــ عند الأعياد والمناسبات الدينية فقط وإنما امتدّ إلى مواسم جمع الفاكهة، فقد حرص

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص١٤٠، ١٤١.

(٢) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧ ص١٤٩.

(٣) محمد محمد أمين: المرجع نفسه، ص١٤٢ ــ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص١٣٩.

(٤) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، السابقة، ص١٥٣.

بعض الواقفين على صرف أموال نقدية من ريع الوقف للمعيدين والمدرسين والطلاب في موسم العنب والبطيخ، فعلى سبيل المثال نصت وثيقة وقف الأمير صرغتمش على أن "يصرف الناظر للمدرس المذكور أعلاه في كل سنة في وقت أوان البطيخ والعنب اثني عشر درهما نقرة ولكل معيد ستة دراهم نقرة ولكل طالب من الطلبة المذكورين أعلاه ثلاثة دراهم نقرة"(١).

وقبل طيّ الحديث عن رواتب المعيدين أرى من الواجب، الإيماء إلى أمرين مهمين لهما صلة بالرواتب من جانب، ويعكسان لنا مدى الاهتمام بالعلم والترغيب فيه في تلك الآونة من جانب آخر، الأمر الأول منهما ما ورد بالوثائق بخصوص مَنح المعيدين وغيرهم من أرباب الوظائف والطلبة بالمدرسة أجازات بمرتب أو مدفوعة الأجر في حالات الضرورة عند المرض، أو السفر للحج، ويشترط في الأخيرة أن يكون السفر لتأدية الفريضة، أما إذا كان تطوعا فيلزم الموظف أن يستنيب عنه من يقوم بعمله أو يُقطع معلومه حتى عودته(٢). وكان يُنص على ذلك صراحة في وثائق الوقف، ففي وثيقة وقف المدرسة الناصرية والقبة المنصورية مثلا "شرط الواقف أن لكل من له وظيفة في هذا الوقف المذكور أن يستنيب عنه عند ضرورةٍ لسفر أو مرض"(٣).

أما الأمر الثاني فهو صرف مستحقات مالية لزوجة المعيد وأولاده في حالة موته، بحيث يعطون مما كان يأخذ من الراتب والمِنح ترغيبا في العلم. وقد أجاز

---

(١) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر عبد اللطيف إبراهيم، آداب القاهرة، مج ٢٧ ص١٥٢.

(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٥١ ــ

Haarmann, Ulrich: "Mamluk Endowment Deeds ..., p.39.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٧١.

بعض الفقهاء ذلك، وإن لم يرد في شرط الواقف، قياسا على إعطاء الأولاد من مال الفيء والغنيمة حتى يكبروا، وقد نبّه الشربيني[1] على ذلك عند تناوله لباب قسم الفيء والغنيمة بقوله: اسْتَنْبَطَ السُّبْكِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْفَقِيهَ أَوْ الْمُعِيدَ أَوْ الْمُدَرِّسَ إذَا مَاتَ تُعْطَى زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ مِمَّا كَانَ يَأْخُذُ مَا يَقُومُ بِهِمْ تَرْغِيبًا فِي الْعِلْمِ كَالتَّرْغِيبِ هُنَا فِي الْجِهَادِ، فَإِنْ فَضَلَ الْمَالُ عَنْ كِفَايَتِهِمْ صُرِفَ إلَى مَنْ يَقُومُ بِالْوَظِيفَةِ. قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: هَذَا تَعْطِيلٌ لِشَرْطِ الْوَاقِفِ إذَا اشْتَرَطَ مُدَرِّسًا بِصِفَةٍ فَإِنَّهَا غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ. قُلْنَا: قَدْ حَصَلَتْ الصِّفَةُ مُدَّةً مِنْ أَبِيهِمْ وَالصَّرْفُ لَهُمْ بِطَرِيقِ التَّبَعِيَّةِ، وَمُدَّتُهُمْ مُغْتَفَرَةٌ فِي جَنْبِ مَا مَضَى كَزَمَنِ الْبَطَالَةِ، وَلَا يَقْدَحُ تَقْرِيرُ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلتَّدْرِيسِ وَنَحْوِهِ؛ لِأَنَّهُ تَبَعٌ لِوِلَايَةٍ صَحِيحَةٍ، وَإِنَّمَا الْمُمْتَنِعُ تَقْرِيرُ مَنْ لَا يَصْلُحُ ابْتِدَاءً كَمَا يَمْتَنِعُ إثْبَاتُ اسْمِ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْجِهَادِ فِي الدِّيوَانِ ابْتِدَاءً. قَالَ ابْنُ النَّقِيبِ: وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الْعِلْمَ مَحْبُوبٌ لِلنُّفُوسِ لَا يَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ شَيْءٌ فَيُوَكِّلُ النَّاسَ فِيهِ إلَى مَيْلِهِمْ إلَيْهِ...".

سادسًا: المعيدون وشغل وظائف أخرى بجانب الإعادة

من خلال تتبع سيّر من شغلوا وظيفة الإعادة بمدارس مصر المملوكية، تبين أن عددًا منهم جمع بين الإعادة ووظائف أخرى غير وظائف التدريس التي تناولناها فيما سبق، وكان من أهم دوافعهم إلى ذلك الكسب المادي وتحسين مستوى المعيشة، نظرا لتأثر مرتبات المدرسين والطلاب بما كانت تصاب به الأوقاف أحيانا من العدوان عليها وامتداد أيدي السوء إليها وخاصة في عهد

(١) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج على متن منهاج الطالبين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي المتوفي ٦٧٦هـ، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٧م، ج٣ ص١٢٨، ١٢٩.

المماليك الجراكسة[١]، ولذا سعى بعضهم لشغل وظائف أخرى بجانب الإعادة، وليس أدل على ذلك مما أورده السخاوي[٢] في سياق حديثه عن السراج عمر بن عليّ (ت٨٢٩هـ/١٤٢٥م) من أنه "أعاد بجامع طولون وأثرى من كثرة وظائفه بعد التقلل".

والمُلاحظ أن الوظائف أو المناصب الدينية كان لها النصيب الأوفر من مجموع الوظائف التي شغلها بعض المعيدين إلى جانب الإعادة ــ غير وظائف التدريس ــ بمدارس مصر المملوكية، ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى أن التعليم آنذاك كان ينصب في المقام الأول على التعليم الديني، ومن هنا كانت الوظائف الدينية من أنسب الأعمال التي يمكن أن يمارسها المعيد إلى جانب الإعادة من غير وظائف التدريس.

ويأتي في مقدمة تلك الوظائف: وظيفتا "الحُكم"[٣] و"النيابة في الحكم"[٤]، أو القضاء ونيابة الحكم في القضاء ببعض المدن، ومن الأمثلة على الأولى، تولي عز الدين عليّ بن أحمد الإسنائي (ت٦٧٠هـ/١٢٧١م) الأحكام (القضاء) بإسنا والإعادة بالمدرسة الغربية فيها[٥]. وتوجه بهاء الدين القفطي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) "إلى إسنا حاكما ومعيدا بالمدرسة العزّية"[٦].

---

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، ص١٢٤.

(٢) الضوء اللامع، ج٦ ص١١٠.

(٣) بمعنى الحاكم. وهو لقب من ألقاب القضاة (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٠٩).

(٤) كان لكل قاضي قضاة أعوان ينوبون عنه في مصر والقاهرة يسمون"النواب من الحكام" (محمد قنديل البقلي: المرجع نفسه، ص٣٥٣). وبالطبع كان للقضاة بالأقاليم أعوان ينوبون عنهم مثل مصر والقاهرة تماما، ويطلق على كل منهم نائب الحكم.

(٥) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص١٢٨.

(٦) الأُدفوي: المصدر نفسه، ص٦٩٣ ــ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٧ ص١٧١.

ومن أبرز الأمثلة على الثانية ما سطّره لنا الأُدْفوي في طالعه السعيد[1] عن: عيسى بن ملاعب، العز الأسواني (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) الذي كان معيدا بالمدرسة النجمية بأسوان، ونائب في الحكم بها. وأحمد بن عبد الكافي البُلْينائيّ (ت ٧٠٦هـ/١٣٠٦م) الذي تولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، ونائب في الحكم بالقرافة والحسينية. ومحمد بن عيسى بن ملاعب الأسواني (ت٧١٧هـ/١٣١٧م) الذي تولى الإعادة بالمدرسة النجمية بأسوان، والنيابة في الحكم بأسوان وأدفو. وعبد الرحمن بن موسى الدشناوي (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) الذي أعاد بالمدرسة النجمية بقوص، ونائب في الحكم عن قاضي عيذاب. وملاعب بن عيسى بن ملاعب، مجد الدين الأسواني (ت٧١٩هـ/١٣١٩م) الذي تولى الإعادة بالمدرسة البانياسية بأسوان، ونائب في الحكم بأدفو. وعلي بن يوسف، المعروف بابن الخطيب الإسنائي (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م) الذي أعاد بالمدرسة المجدية ببلده، ونائب في الحكم عن قاضي أرمنت. وعمر بن محمد الأسواني (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) الذي أعاد بالمدرسة النجمية بأسوان، ونائب في الحكم بها.

وأحسب أن تلك الأمثلة التي أوردها الأُدْفوي فيها الكفاية، ومع هذا فلا بأس بذكر غيرها مما ورد في المصادر الأخرى، لزيادة ما نحن بصدده تثبيتًا وتأكيدًا، فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ولّيّ محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن المناوي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) إعادة المنصورية ونيابة الحكم[2] بالقاهرة. وولّيّ محمد بن عمر الشنشي الحنفي

(١) انظر صفحات: ٩٣، ٢٩٧، ٤٣٦، ٤٥٩، ٤٦١، ٦٠٠، ٦٥٩.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٣ ص٢٨٥.

(ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) الإعادة بالصرغتمشية بعد شيخه الإردبيلي، وتصدى لفصل الأحكام، ولم يخلف بعده في النواب مثله[١].

وهناك وظيفة أخرى لها صلة بالقضاء، عمل بها بعض المعيدين إلى جانب الإعادة، وكانوا يتكسبون من ورائها، وهي الشهادة[٢] وكتابة العقود وتوثيقها، وبالأخص عقود الأنكحة (أي عقود الزواج)، وفي هذا الصدد نقرأ مثلا عن رافع بن هجرس بن محمد الصميدي (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) الذي "أعاد ببعض المدارس ودرّس وولى عقود الأنكحة وكتب بخطه الكثير"[٣]. وعن عبد العزيز بن يحيى بن أبي بكر، القَمُوليّ (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، الذي يقول عنه الأُدْفوي[٤]: "كان فقيها مالكيا...بالمدرسة النجيبية. وكان متصدرا بها لإقراء مذهب مالك ومعيدا بها مدة.

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٨ ص٢٦٥.

(٢) يطلق على أصحاب هذه الوظيفة "العدول"، جمع عدل، (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٢٤٢) أو "الشهود العدول"، ولذا يسميها البعض وظيفة "العدالة"، ويقول عنها ابن خلدون: هي وظيفة دينيّة تابعة للقضاء ومن موادّ تصريفه، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحمّلا عند الإشهاد وأداء عند التّنازع، وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم (العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٨٠). وقد عرف عن العصر المملوكي كثرة الشهود فيه، ومن أسباب كثرتهم أنه كان لكل قاض من قضاة القضاة الأربعة عدد من نواب الحكم، ولكل منهم جمهرة من الشهود العدول (عبد اللطيف إبراهيم: التوثيقات الشرعية والاشهادات في ظهر وثيقة الغوري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ١٩، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م، ص٣١٠).

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢ ص١٠٧.

(٤) الطالع السعيد، ص٣٢٢، ٣٢٣.

وكان جالسا بسوق الشهود[1]بقوص عاقدا للأنكحة، وكان فقيرا، ومع ذلك فكان قليل التحمل للشهادة جدا وكثير الاحتراز في العقود يترك كثيرا منها".

ونقرأ أيضا عن محمد بن يوسف الملقب بكتكوت (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م) الذي استقر في الإعادة للمحدثين بالظاهرية القديمة وفي درس الشافعي والشهادة "بالعمائر السلطانية"[2]، وهي العمائر الخاصة بالسلطان وما يختار إنشاءه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وتتبع إدارة "شد العمائر" المنوط به الإشراف على العمائر السلطانية ورعايتها[3].

ومن الوظائف الأخرى التي شغلها بعض المعيدين بجانب الإعادة: الخطابة، والإمامة، والأذان، وكان المعيد يشغل واحدة منها أو أكثر بجانب الإعادة حسبما يقع الاختيار عليه، ويشغلها في الغالب بالمدرسة التي يُعيد فيها أو بجامع المدينة التي بها المدرسة أو بأحد مساجدها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها أن مبارك بن نصر القوصي (ت٧٠١هـ/١٣٠٠م) المعيد بالمشهد الجيوشي جمع بين الإعادة والإمامة والأذان[4]. وأن عبد القوي بن عليّ، نجم الدين الإسنائي

---

(١) كان للشهود في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصّون بالجلوس عليها، فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب. (ابن خلدون: العبر، ج١ ص٢٨٠).

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠ ص٩٦.

(٣) محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٩٥، ٢٥١.

(٤) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٤٧٤. والمشهد الجيوشي كان بقوص، ويفهم ذلك من قول الأُدفوي: "ولمّا ورد بعض القضاة إلى قوص وسأله ــ أي سأل مبارك بن نصر ــ قال: من هو القيّم؟ فقال: المملوك، ثم قال: ومن المؤذّن؟ فقال: المملوك، ثم قال: ومن الإمام؟ فقال: المملوك، ثم قال: ومن المعيد؟ فقال: المملوك"، فهذا معناه أن مبارك ابن نصر جمع بين هذه الوظائف بقوص، ويؤكده الأُدفوي عندما يختتم ترجمته له بقوله:"وكان أبوه فقيها معيدا بالمشهد أيضا". ووالد مبارك هو نصر الله بن عبد السلام بن زيد، عاش بقوص واشتغل فيها بعلم الحديث وتوفي٦٤٧هـ/١٢٤٩م (المصدر نفسه، ص٤٧٥، ٦٧٦).

(ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م) أعاد بالمدرسة الأفرمية بإسنا وخطب بجامعها نيابة عن أحمد بن السديد، وسمع الأُدْفوي[١] خطابته، ومدحها بقوله "كان عليها روح". كذلك أعاد عبد الرحمن بن موسى الأمين الدشناوي (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) بالمدرسة النجمية بمدينة قوص وأمّ بجامعها[٢]. وأعاد عمر بن محمد بن عبد العزيز الأسواني (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) بالمدرسة النجمية بأسوان، وناب في الحكم بها، وتولى الخطابة[٣]. كما وُليّ أحمد بن عبد الرحمن الطنتدائي إعادة الحديث بقبة البيبرسية وإمامة الرباط بها[٤]. ووُليّ تاج الدين محمد بن محمد المليجي المصري (ت٧٩٦هـ/١٣٩٤م) خطيبا بمدرسة السلطان حسن ومعيدا بالمنصورية[٥].

ومن المعيدين من عمل بالإفتاء إلى جانب الإعادة، ويتضح ذلك مما أورده النويري[٦] عن يونس القرقشندي (أو القلقشندي) في سياق حديثه عن وفيات سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، إذ يقول: "وتُوفى في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، الشيخ الفقيه المفتي شرف الدين يونس بن أحمد بن صلاح القرقشندى الشافعى، أحد المفتين، وأحد المعيدين بزاوية الإمام الشافعي بالجامع العمري بمصر، ودفن من يومه بالقرافة، رحمه الله تعالى".

---

(١) الطالع السعيد، ص٣٣٢.

(٢) الأُدْفوي: المصدر نفسه، ص٢٩٧.

(٣) الأُدْفوي: المصدر نفسه، ص٤٥٩.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١ ص٣٣٢.

(٥) ابن حِجيّ: تاريخ ابن حجيّ، ج١ ص٤٣.

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٣ ص١٩٠.

وبالإضافة إلى ما سبق، هناك من المعيدين من عمل بجانب الإعادة في وظيفة "خازن كتب المدرسة" أو أمين مكتبتها بالمعنى المتداول في أيامنا، وهي من الوظائف التي كانت تناسب المعيدين جدًا، حيث كان يشترط فيمن يتولاها أن يكون عالما فقيها ليكون عونا للطلبة والباحثين ويمكنه إرشادهم للمراجع[١]، وهي بلا ريب شروط تتوفر في المعيدين، وقد حددت وثائق الوقف مهمة الأمين أو الخازن في العصر المملوكي، فكان الناظر يُسلم الكتب إليه بحضور الشهود، ويقوم الخازن بمراجعتها ونفط الغبار وتجليدها وترميمها والمحافظة عليها وتقديمها للمستعيرين[٢]، وممن عمل بهذه الوظيفة من المعيدين: البدر محمد بن الجمال السمنودي (مات بعد ٨٦٠ هـ/١٤٥٥م ظنًا) الذي كان معيدا بمدرسة أم السلطان وخازنا لكتبها[٣]. وكذلك الزين أبو بكر بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٨م) الذي وُليّ إعادة الحديث بالبيبرسية والخطابة بالباسطية[٤] وخزن كتبها[٥].

---

(١) زبيدة محمد عطا: مكتبات المدارس "خزانة الكتب" في العصرين الأيوبي والمملوكي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" والذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية" من ٢٢ ــ ٢٥ أبريل ١٩٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٢٠.

(٢) زبيدة محمد عطا: البحث نفسه، ص٢٢٠، ٢٢١.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٨ ص١١٣.

(٤) المدرسة الباسطية: بخط الكافوري بالقاهرة، أنشأها الزيني عبد الباسط بن خليل الدمشقي ثمّ القاهري، سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م عندما كان ناظرا للخزانة والكِتابَة بها في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي (السخاوي: المصدر نفسه، ج١ ص٢٧٦ وج٤ ص٢٤).

(٥) السخاوي: المصدر نفسه، ج١١ ص٤٥.

سابعًا: عزل المعيدين وتنازل بعضهم عن الإعادة

كان مؤسس المدرسة أو الواقف هو المتحكم الأول في عزل المعيدين كما كان هو المتحكم تماما في تعيينهم، إذ كان هو الذي يعين الموظفين بالمدرسة، وله عزل أحدهم أو استبدال واحد منهم بغيره، وله اختصار ما يرى اختصاره من الوظائف بها، كل ذلك راجع إلى رأيه ونظره متى شاء وكيف شاء(١).

كما كان للمشايخ أو الأساتذة دور في عزل المعيدين من وظائفهم خاصة إذا بدا من أحدهم تقصير في أداء عمله أو ما يستوجب عزله من وجهة نظر شيخه أو أستاذه، كالاتهام بالسعي لدي الأمراء والوزراء والتودد والتقرب إليهم لشغل المناصب، مثلما حدث مع أبي الفتح فتح الدين اليعمرى الشافعي الذي قيل إنه "كان يعاشر بعض الأكابر فوقع له من البدر ابن جماعة زجر فصرفه عن إعادة الحديث بالجامع الطولوني"(٢).

وفي حال ترقية من يعمل بالإعادة إلى وظيفة مدرس أو لمشيخة مدرسة(٣) كان يعزل نفسه من الإعادة أو يتنازل عنها لمن يرى فيه

---

(١) وثيقة وقف الأمير صرغتمش، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم، مجلة آداب القاهرة، مج٢٧، ص١٥٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤ ص٢١١. ذكر ابن حجر في موضع آخر ما ينفي عن أبي الفتح المذكور تهمة السعي لدى الأكابر بقوله: قيل إن الناصر رأى جنازته حافلة فسأل الجلال القزويني عنها، فذكر له مقدار أبي الفتح، وكان الفخر ناظر الجيوش يغص منه فقال للناصر إنه كان مع ذلك يعاشر الأمراء والوزراء قديما وينشد عندهم، فذكر الناصر ذلك للجلال القزويني والتقيّ الاخنائي، فبرءاه من ذلك، وشهدا بعدالته ونزاهته، وكانت وفاته في سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م (المصدر نفسه، ج٤ ص٢١٣).

(٣) وذلك في حالة إذا كان مدرسا ويعمل بالإعادة إلى جانب التدريس.

الأهلية لشغلها حسب شروط الواقف، مثلما فعل الشمس الأمشاطي عندما أخذ مشيخة البرقوقية بعد سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م فتنازل عن الإعادة بالأبوبكرية لعليّ بن أحمد بن محمد نور الدين القاهري الحنفي، وكان عمره (أي علي بن أحمد) وقتها ٥٤ سنة تقريبا[١].

ومثلما فعل ابن الكركي عندما استقر في مشيخة الاشرفية برسباي بعد موت الأقصرائي[٢]، فأخرج من وظائفه تدريس الاينالية ونظر المهمندارية مع الإعادة بها[٣] للشريف المقسي الوفائي. ولمّا استقر المحب أبو الفضل بن الشّحْنَة[٤] في مشيخة الخانقاه الشيخونية تصوفا

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص ١٩٠.

(٢) الأقصرائي نِسبة لأقصرا إحدى مدن الروم، وهو الشيخ أمين الدين يحيى بن محمد، ولد سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م، وانتهت إليه رياسة الحنفية في زمانه، مات في أواخر المحرم سنة ٨٨٠هـ/ يونيه ١٤٧٥م (السخاوي: المصدر نفسه، ج٢٤٠، ٢٤٣ ـ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١ ص٤١٣).

(٣) السخاوي: المصدر نفسه، ج١ ص٦٢، ٦٣ وج ٨ص٢١٦.

(٤) هو المحب أبو الفضل محمد بن المحب أبي الوليد محمد بن الشّحنة، الحنفي، من الرؤساء في أيام الاشرف قايتباى، من أهل حلب. ولي قضاءها سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م وانتقل إلى مصر فولي بها كتابة السر (سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م) وأقام أقل من سنة، ونفي إلى بيت المقدس، فأقام إلى سنة ٨٦٢ وأذن له بالعودة إلى حلب، فعاد، ثم إلى مصر، فأعيد إلى كتابة السر (سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١) وأضيف إليه قضاء الحنفية. ثم صرف عن العمل (سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢)، مات وهو شيخ (الخانقاه) الشيخونية سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م (انظر، السخاوي: المصدر نفسه، ج٩، ص٢٩٥: ٣٠١).

وتدريسا تنازل عن الإعادة بالصرغتمشية لابنه الصغير[1]. كذلك عندما وُلي البدر محمود بن الجلال الأردبيلي تدريس بعض المدارس تنازل عن الإعادة بالصرغتمشية لعبد البر بن الشحنة[2].

ولم تكن الترقية لوظيفة مدرس هي السبب الوحيد في تنازل بعض المعيدين عن الإعادة أو عزل أنفسهم منها، وإنما هناك من عزل نفسه من الإعادة لأسباب شخصية، ومنهم شمس الدين الأصبهاني[3] الذي أعاد بالشافعي ثم عزل نفسه منها لمّا ولِيَ التدريس به الشيخ تقي الدين القشيري (ابن دقيق العيد)، فهو يعتبر نفسه شيخا وأستاذا كبيرا، وتقي الدين (ابن دقيق العيد) كان واحدا ممن يحضرون دروسه بقوص وقتما

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٣٠٠.

(٢) السخاوي: المصدر نفسه، ج١٠ ص١٣٩. وابن الشحنة المذكور هو سري الدّين أبو البركات عبد البر بن الْمُحب أبي الفضل محمد بن الْمُحب أبي الوليد محمد بن الشّحنة، الْحلبِي ثمَّ القاهري الحنفيّ، ولد فِي ليلة الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة بحلب، وانتقل منها صحبة أبويه إلى القاهرة، توفي سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م (السخاوي: المصدر نفسه، ج٤ ص٣٣ ــ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج١٠ ص١٤١).

(٣) هو القاضي أبو عبد الله محمد بن محمود، شمس الدين الأصبهاني، شارح المحصول، كان إماما في المنطق والكلام والأصول والجدل، خرج من أصبهان شابا ودخل بغداد فاشتغل بها ثم قدم حلب وولي القضاء بمنبج، ثم قدم مصر وولي قضاء قوص فباشرها مباشرة حسنة، دخل القاهرة بعد قضاء قوص ودرس بالمشهد الحسيني وأعاد بالشافعي، توفي سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. (ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص١٠٠، ١٠١ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٥٨: ٢٦١).

كان قاضيا بها، فكيف يعيد عنده بعد ذلك، فهذا الذي يفهم من كلام ابن السبكي[1] في معرِض ترجمته لشمس الدين الأصبهاني حيث يقول: "لمّا ولّيّ الشيخ تقي الدين القشيري تدريس الشافعي عزل نفسه (أي الأصبهاني) من الإعادة وبلغني أنه قال بطن الأرض خير من ظهرها[2] ونحن نقيم عذره من جهة مشيخته وقدم هجرته وإلا فحقيق به وبأمثاله الاستفادة من إمام الأئمة الشيخ تقي الدين".

ولم يكن تنازل أحد المعيدين عن الإعادة لغيره أو عزل نفسه منها يتمّ إلا بموافقة الواقف أو ناظر الوقف باعتباره المتحكم الأول في عملية تعيين المعيدين وعزلهم كما سبق ذكره، والمثال عل ذلك ما أورده السخاوي[3] في سياق حديثه عن العز عبد السلام بقوله: "وكذا أعاد العز عبد السلام بالجانبكية التي بالقربيين للحنفية ثم رغب عنها للنور الصوفي أحد نواب الحنفية الآن وتوقف الناظر في الإمضاء له مدة ثم كتب"، ومعنى هذا أن الواقف أو ناظر الوقف كان له حق الاعتراض على التنازل عن الإعادة أو العزل منها، وعلى من يتم اختياره كبديل من المعيدين الجدد، فذلك بالنسبة له أمر ليس واجب التنفيذ، ومن حقه أن يوافق عليه أو يرفضه أو يؤخره لحين توفير البديل المناسب، كل ذلك حسبما تقتضيه شروط الوقف، وبما يخدم العملية التعليمية داخل المنشأة التعليمية.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص١٠١.

(٢) أوردها ابن قاضي شهبة "خير من ظاهرها" (طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٦٠) .

(٣) الضوء اللامع، ج٤ ص٢٠١.

ثامنًا: مآل المعيدين الوظيفي بعد الإعادة والمناصب التي شغلوها

لعله من الأهمية بمكان أن نحاول في ختام ذلك البحث الإجابة على تساؤل يقتضي البحث طرحه هنا، وهو ما الذي كان يؤول إليه أمر المعيدين الوظيفي بعد انتهاء الإعادة ؟ وهل كانت الوظائف التي يشغلونها بعد الإعادة مقتصرة على الوظائف التعليمية داخل المدارس أم تعدتها إلى وظائف ومناصب أخرى مهمة ؟

أ ــ ترقية المعيد إلى وظيفة مدرس أو شيخ مدرسة

لا ريب أن أول ما يتبادر إلى الذهن عند الإجابة على التساؤل المطروح آنفا أن أمر المعيد الوظيفي كان يؤول بطبيعة الحال بعد الإعادة إلى الترقي لوظيفة مدرس بالمدرسة التي يعيد بها أو بغيرها، على اعتبار أن الإعادة وظيفة لإعداد مدرس المستقبل، وهذا الأمر صحيح، ويكفي للتدليل على أن ترقية المعيد لوظيفة التدريس بعد الإعادة هو التدرج الوظيفي الطبيعي في الوظائف التعليمية آنذاك، أن نذكر ما كان يُحكى عن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم (ت ٧٩٠ هـ/١٣٨٨م) من أنه كان يقول: "ما وليت قط فقاهة ولا إعادة"، على حد تعبير ابن قاضي شهبة[١]، أو "ما وليت طالبا ولا معيدا وكل التدريس وليته كان بغير سؤال"، على حد تعبير القَاضِي تَقِيّ الدّين الأسدي الذي نقله لنا ابن حجر العسقلاني[٢]، فهذا القول أو ذاك نلمح فيه فخرًا من قائله بتوليته التدريس دون المرور على الإعادة، على اعتبار أن ذلك أمرا كان من الفرائد أو النوادر التي لم تتكرر كثيرا، إذ كان الطبيعي والغالب حينئذ عندما يشغل مدرس وظيفته أن يتدرج

---

(١) طبقات الشافعية، ج٣ ص١٨٩.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١ ص ٣٩.

من الإعادة إلى التدريس، وقد ألمحنا فيما مضى إلى معيدين شغلوا وظائف تدريسية بجانب الإعادة واعتبرنا ذلك من قبيل التدريب على التدريس في مراحل لاحقة.

وجدير بالذكر أن أمر ترقية المعيدين إلى درجة مدرسين في العصور الوسطى لم يكن محكوما بقواعد زمنية محددة، كما هو الحال في عصرنا الحالي، فمنهم من بقي سنوات طويلة في وظيفة معيد، ومنهم من أمضى حياته فيها ــ أشرنا إلى أمثلة عليها في موضع سابق ــ وذلك بمحض إرادة البعض منهم أو ربما لأنه لم يكن يصح أن يُرقى معيدا مهما طالت مدة إقامته بالمدرسة إلى درجة مدرس بها أو بغيرها من المدارس إلا في حالة خلو ذلك المنصب ممن يشغله مع مراعاة أن يكون موافقا لبقية شروط الوقف[1]، فمثلا لم يرق بهاء الدين القفطي المعيد بالمدرسة العزّية بإسنا إلى درجة مدرس بالمدرسة ذاتها إلا عقب موت مُدرسها النجيب عثمان بن مفلح سنة ٦٦٨هـ[2]/١٢٦٩م. كما لم يُولى بدر الدين عبد اللطيف (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) تدريس المدرسة الظاهرية إلا بعد موت والده سنة٦٨٠هـ/١٢٨١م، وكان معيدا له فيها[3].

ومن المعيدين من تدرج في المناصب بعد الانتهاء من الإعادة حتى وصل إلى مشيخة مدرسة من المدارس الكبرى، مثل العلم العراقي عبد الكريم بن علي(ت ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م) الذي أعاد بالمدرسة الشريفية بالقاهرة، وتولى مشيخة

(١) أيمن شاهين سلام: المدارس الإسلامية في مصر، ص١٤٩.

(٢) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص ٣٥٨، ٣٥٩، ٦٩٣ ــ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٩ ص٣٣٧ وج٢٧ ص١٧١ ــ الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٦٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢ ص٤٠٩.

التفسير بالمدرسة المنصورية[1]. ومثل زين الدين عمر بن الكتاني (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م) الذي ولي مجموعة وظائف كان من بينها إعادة بالمدرسة القراسنقرية [2]، ومشيخة حلقة الفقه بالجامع الحاكمي ومشيخة الخانقاة الطيبرسية بشاطئ النيل، ثم فوض إليه في أخر عمره مشيخة الحديث بالقبة المنصورية[3]. وهناك أيضا الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي العُرياني، الذي أعاد بالمدرسة الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعي رحمه الله ودَرّس لأهل الحديث بالمدرسة المَنْكوتَمُرية[4] بالقاهرة وبغيرها، وولّيّ مشيخة خانقاه الأمير طيبغا الطويل[5] بالصحراء، وبها توفي سنة ٧٧٨هـ[6]/١٣٧٦م.

---

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٠٧.

(٢) هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار نائب السلطنة، سنة سبعمائة، (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٣٢).

(٣) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٨٧، ١٨٨.

(٤) تقع هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة، بناها الأمير سيف الدي منكوتمر الحساميّ نائب السلطنة بديار مصر، فكملت في صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٣٠).

(٥) أحد الأمراء الكبار في دولة الناصر حسن، ولما قتل الناصر حسن استَقر أمير سلاح، ثمّ أمسكه الأمير يلبغا وحبسه بالإسكندرية في سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م، ثمَّ أفرج عنه بعد قتل يلبغا، وأعطي نيابة حلب في أوائل سنة ٧٦٩هـ/أغسطس ١٣٦٧م، مات في شوال سنة ٧٦٩هـ/ مايو١٣٦٨م (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٣١).

(٦) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م، ج١ ص٣٧٧.

ب ــ انصراف المعيد لشغل وظائف القضاء والحسبة والوقف والإفتاء

لم تكن وظيفة التدريس في تلك العصور هي الخط الوظيفي الوحيد الذي يتعين على المعيدين أن يسلكوه بعد الإعادة، بل كانت أمامهم فرص وظيفية أخرى في عدة مجالات، وهي في الغالب تلك المجالات التي كان يوظف فيها العلماء بصفة عامة في العصر المملوكي(١).

فمن المعيدين من كان يُطلب بعد الانتهاء من الإعادة لتولي القضاء أو لتولي النيابة في الحكم عن القضاة، ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا السبيل تولية ناصر الدين محمد بن إبراهيم، النويري (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م) قضاء المحلة(٢) بعدما أعاد بالمدرسة الحسامية بالقاهرة(٣). وكذلك تولية محمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي (ت

---

(١) وَجدَ العلماءُ في الغالب في العصر المملوكي توظيف في ثلاثة مِنْ قطاعاتِ المجتمعِ هي: القطاعات القانونية والدينية والتربوية. فعملوا كشيوخ مدارس أو محتسبين أو شهود أو قضاة أو معيدين أو مدرسين أو أمناء مكتبات أو أئمة أو خطباء أو مقرئين أو صوفيين.
Manjikian (Sevak Joseph): Education and Training Under the Mamluks, p.59.

(٢) أي المَحلَّة الكبرى، وهي من المدن المصرية المشهورة، وتمثل حاليا أحد مراكز محافظة الغربية.

(٣) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٨. والمدرسة الحسامية بخط المسطاح من القاهرة قريبا من حارة الوزيرية، بناها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوريّ، ابن عبد الله، وهو من مماليك المنصور قلاوون، ربّاه صغيرا ورقاه في خدمه إلى أن تقلد نائب السلطنة بديار مصر سنة ثمان وسبعين وستمائة. ولم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور، وقام في السلطنة بعده ابنه الأشرف خليل سنة تسع وثمانين وستمائة، فقبض عليه وعوقب حتى مات. (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٢٨).

٧٦٤هـ/١٣٦٢م) قضاء حمص فور انتقاله لدمشق سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بعدما أعاد بالمدرسة المجاورة للشافعي[١]. وممن وُلي النيابة في الحكم بعد الإعادة، عمر بن محمد بن يوسف، تقي الدين المالكي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) الذي أعاد بالمنصورية ثم ولي نيابة الحكم بالقاهرة، فباشره مدة يسيرة ومات[٢].

ومنهم من وصل إلى منصب قاضي القضاة وشغل بجانبه مشيخة مدرسة من المدارس، مثل قاضي القضاة جمال الدين يوسف الملطي الحنفي، الذي خُلع عليه سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، واستقر في مشيخة مدرسة صرغتمش عوضا عن كاتب السر الشريف، وكان القاضي المذكور معيدا فيها في أيام الشيخ تقي الدبن الأتقاني الفارابي[٣].

ومعنى هذا أن وظيفة الإعادة كانت من بين الوظائف التي تؤهل أصحابها وتفتح الطريق أمامهم لتولي المناصب المهمة، وبخاصة القضاء، سواء كان ذلك بعد الإعادة مباشرة أو بعد التدريس، ويتضح ذلك مما ورد عن أبي الفتح محمد بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي الشافعي الذي يخبرنا عن تنقلاته الوظيفية بقوله: "وأما تنقلاتي الدنيوية، فإنني تنزلت بالمدارس مشتغلا، وتوليت الإعادة للفقهاء بالمشهد الحسيني والمدرسة السيفية في حدود سنة عشرين وسبع ماية نيابة عن الجد أبي زكريا يحيى، رحمه الله تعالى، فاستقر التدريس بها باسمي، ولم أزل مدرسا بها مع ما أضيف إليها من الوظايف التي قدرها الله تعالى، إلى أن

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ج٣ ص١٩١.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١ ص٤٨٥، ٤٨٦.

باشرت التصدير بالجامع الطولوني وغيره مكان شيخنا قاضي القضاة أسبغ الله ظله، لما توجه إلى الشام المحروس، ووليت القضاء بالمقسم[١] ظاهر القاهرة المحروسة، ثم فوض إليّ الحكم بالقاهرة المحروسة، فأقمت على ذلك مدة إلى أن قدر الله تعالى لانتقال إلى الشام المحروس، فوليت تدريس المدرسة الركنية الجوانية وخلافة الحكم العزيز بالشام المحروس، والتصدير بالجامع الأموي..."[٢].

ومن هذه المناصب أيضا "ولاية الحسبة" وهي من الوظائف الدينية المهمة[٣]، التي شغلها بعض المعيدين بعد الإعادة، مثل الشريف عز الدين محمد بن محمد جعفر القنائي (ت ٧١١هـ/١٣١١م)[٤]، الذي تولى تدريس المدرسة القراسنقرية بالقاهرة، وأعاد بالجامع الطولوني، وتولى الحسبة بالقاهرة[٥].

---

(١) المقسم أو المقس: قرية كانت تعرف قبل فتح مصر بأم دنين، وإنما سميت المقس لأن العاشر أو الذي يجبي المكس كان يجلس بها، فقلب فقيل المقس، ومن الناس من يسمية المقسم، لأن الغنائم قسمت فيه عند فتح الصحابة رضي الله عنهم لمصر، ولمّا بُني السور حول مصر والقاهرة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي جعلت نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، فصار المقسم ظاهر القاهرة (المقريزي: الخطط، ج٣ ص١٩٦: ٢٠٠ وج٤ ص٦٥).

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣ ص٢٣٦، ٢٣٩.

(٣) كان لا يتولاها إلا رجل من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين، واختصاصها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقائم بها هو المحتسب، ومهمته النظر في أقوات الناس والقيام بتسعيرها ومراقبة هذه الأسعار، ومنع الغش، كما عليه أن ينظر في النقود للتثبت منها (ابن السبكي، معيد النعم، ص ٦٥، ٦٦ ــ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٣٤٢).

(٤) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٢٩٦ .

(٥) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٦٢٨، ٦٢٩.

وعلاوة على ما سبق هناك من ولي "نظر الأوقاف" بعد الإعادة، مثل الشهاب الحلبي المعروف بالنحوي وبابن السمين (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، الذي وُلي نظر الأوقاف بالقاهرة بعدما درس بالجامع الطولوني، وأعاد بالشافعي، وناب في الحكم بالقاهرة[١].

وهناك من وُلي "إفتاء دار العدل"[٢]، كمحمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن جُناق (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) ووُليها بعد الإعادة بالمنصورية والحاكم[٣].

وهكذا لو تتبعنا حياة الكثيرين من معيديّ مدارس مصر المملوكية في المصادر بحثا عن الوظائف والمناصب التي شغلوها بعد انتهاء الإعادة وحتى وفاتهم، لتبين لنا أنهم شغلوا مناصب مهمة، الأمر الذي يعكس لنا أهمية وظيفة الإعادة في تأهيل أصحابها لشغل هذه المناصب.

ليس هذا فحسب، بل يمكن ملاحظة أن بعض أصحاب الوظائف الكبرى كالمدرسين ومشايخ المدارس والقضاة وغيرهم، كانوا يشتغلون بالإعادة إلى جانب وظائفهم، فهذا أبو عبد الله محمد بن محمود الأصفهاني شارح المحصول

---

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٨٩ ــ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ ص ٢١ ــ السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص٤٠٢ وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١ ص٤٦٥.

(٢) إفتاء دار العدل: يشغل هذه الوظيفة أربعة، كل منهم يمثل مذهبا من المذاهب الأربعة وجلوسهم دون قضاة العسكر، ومكان دار العدل بالقلعة، وهي المكان الذي يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء ومعه كتاب الدست، يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه للنظر في المظالم (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٣٠).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص٧٣.

(ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) وُلى القضاء بعدة أماكن ثم درس بالمشهد الحسيني بالقاهرة، وأعاد بالشافعي وانتصب للإفتاء[١]. كما وُلي علاء الدين الباجى (ت٧١٤هـ/١٣١٥م) وكالة بيت المال بالكرك ودرس بالسيفية بالقاهرة وأعاد بالمنصورية[٢]. وهذا يونس بن عيسى، شرف الدين الأرمنتي (ت٧٢٤هـ/١٣٢٤م) يلي القضاء بعدة جهات ويدرّس بالمدرسة العزية بقوص ونراه يعيد بالمدرسة الشمسية مدة[٣].

وعرف أيضا عن جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) أنه وُلي نظر دار الطراز[٤] ووكالة بيت المال[٥] وحسبة القاهرة، ودرَّس بالملكية[٦]

---

(١) الإسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص٨١.

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣ ص١٠٢.

(٣) الأُدفوي: الطالع السعيد، ص٧٣٣، ٧٣٤ ـ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩ ص١٨٥.

(٤) دار الطراز: هي التي ينسج بها جميع أنواع الأقمشة التي تعمل بتنيس ودمياط والإسكندرية، وكانت موجودة في العصر الفاطمي (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٢٩).

(٥) وكالة بيت المال: وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر وكان لمن يتولى هذه الوظيفة التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور وغير ذلك (محمد قنديل البقلي: المرجع نفسه، ص ٣٦١).

(٦) هذه المدرسة بخط المشهد الحسينيّ من القاهرة، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار، تجاه داره ، وعمل فيها درسا للفقهاء الشافعية، وموضعها من جملة رحبة قصر الشوك (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٣٧).

والاقبغاوية[1] والفارسية[2]، ودرَّس التفسير بالجامع الطولوني، ومع كل هذا أعاد بالمدرسة الناصرية[3]، كما اشتغل شهاب الدين أحمد بن إسماعيل (ت٨٩٣هـ/١٤٨٨م) بالتدريس في عدة مدارس وأعاد بجامع طولون، كل ذلك مع عدم تهالكه على القضاء ومداومته للاشتغال ومزيد الرغبة في العلم وتحصيله[4].

والأدهى من ذلك كله أن بعض الحكام كانوا يلجئون إلى تعويض من يفقد وظيفته من أصحاب الوظائف الكبرى بإسناد الإعادة إليه مع بعض الوظائف الأخرى، ومما سطّره لنا التاريخ مثالا على ذلك، ما حدث سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م عندما رسم السلطان بتعويض الشيخ فخر الدين يوسف النويري المالكي عن قضاء دمشق "بما يليق به، فوليّ إعادة المدرسة الناصرية، ونيابة الحكم بالجامع الصالحي"[5].

---

(١) هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحريّ، أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٢٤).

(٢) هذه المدرسة بخط الفهادين من أول العطوفية بالقاهرة، بناها الأمير فارس الدين البكيّ، قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار، سنة ست وخمسين وسبعمائة (المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ص٢٤٠).

(٣) المقريزي: درر العقود الفريدة، ج٢ ص٢٣١ ــ الغزي: بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندري، دار بن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٥.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١ ص٢٣٥.

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢ ص٢٩٧.

والقول الفصل، بعد طرح هذا البحث، إن وظيفة الإعادة بمدارس مصر المملوكية كانت واحدة من الوظائف المهمة في ذلك العصر، وإن نظام الإعادة ذاته يعد بمثابة نافذة جديدة نطل منها على نظم التعليم الإسلامية الزاهرة في مصر المملوكية بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي على وجه العموم، فلا ريب أن ذلك النظام يعكس لنا التقدم العلمي والفكري في مصر المملوكية ومدى ما وصلت إليه المدارس أو الكليات الإسلامية من رقي وتقدم في العالم الإسلامي آنذاك، بحيث صار من اليسير أن تضم في جهازها التعليمي "معيدين" بوصفهم هيئة معاونة للأساتذة، وهو ذلك النظام المعمول به حاليًا في نظم التعليم الحديثة بالجامعات العربية والأجنبية على حد سواء. ولعل ذلك وحده كفيل بتكميم أفواه المتشدقين بإطلاق صيحاتهم بين الفينة والأخرى بوصف ووصم العصر المملوكي بأنه عصر الانحطاط أو الركود العلمي، فالله المستعان على ما يصفون.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

١ــ **وثيقة وقف الأمير صرغتمش**، نشر ودراسة عبد اللطيف إبراهيم علي تحت عنوان: نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، الجزءان الأول والثاني، مايو، ديسمبر ١٩٦٥م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٩م.

ثانيًا: المصادر

الأُدفوي: كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

١ــ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م.

الإسنوي: جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م)

٢ــ طبقات الشافعية، جزءان، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

٣ــ رحلة ابن بطوطة، أو"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت).

ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد الحراني (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)

٤ــ مجموعة الفتاوى، ج١٧، ١٩، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ط٣، ٢٠٠٥م.

ابن جماعة: بدر الدين أبو عبد الله محمد الكناني (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

٥ــ تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم في أَدَب العَالِم والمُتَعَلِّم، تحقيق عبد السلام عمر عليّ الجزائري، مكتبة ابن عباس، سمنود، مصر ٢٠٠٥م.

حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)

٦ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د. ت).

الحجاوي: شرف الدين أبو النجا موسى بن أحمد (ت٩٦٨هـ/١٥٦١م)

٧ ــ الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، تحقيق عبد اللطيف محمد موسى السبكي، دار المعرفة بيروت، لبنان (د.ت).

ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)

٨ــ إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ج١، ٢، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤، ١٩٩٨م .

٩ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، دار الجيل، بيروت ١٩٩٣م.

١٠ــ رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٨م.

ابن حِجيّ: شهاب الدين أحمد السعدي الحسبَاني (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)

١١ــ تاريخ ابن حِجيّ (حوادث ووفيات٧٩٦ــ ٨١٥هـ)، ج١، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

١٢ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

ابن خِلكان: أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

١٣ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أجزاء (١، ٢، ٣)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت١٩٧٠، ١٩٩٤م .

الذهبي: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

١٤ــ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٣٣، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

ابن رجب الحنبلي:زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)

١٥ـ ذيل طبقات الحنابلة، ج٤ ، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٥م.

الزَّبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)

١٦ـ تاج العروس من جواهر القاموس، ج٨، تحقيق عبد العزيز مطر، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٩٤م.

السبكي: تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)

١٧ـ فتاوى السبكي، ج٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان (د. ت)

ابن السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)

١٨ـ طبقات الشافعية الكبرى، أجزاء (٤، ٨، ٩، ١٠) تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م .

١٩ـ معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥م.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

٢٠ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة،(د. ت).

٢١ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج٣، عني بنشره وطبعه أسعد طرابزوني الحسيني، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة ١٩٨٠م.

٢٢ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، أجزاء (٣، ٥، ٦، ٧، ٨)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د. ت).

السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ/١١٦٧م)

٢٣ـ أدب الإملاء والاستملاء، نُشر في كتاب التربية والآدابية والتواصل في قطاع أهل الحديث والفقه والعبارة، وهو الكتاب رقم (٤) من سلسلة العقل

العملي في التراث العربي الإسلامي الأعلام والنصوص المُجمّعة، إشراف الدكتور على زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٣م.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

٢٤ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية صيدا، لبنان، (د. ت).

٢٥ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م .

الشربيني: شمس الدين محمد بن أحمد (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م)

٢٦ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج على متن منهاج الطالبين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي المتوفى ٦٧٦هـ، ج٣، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٧م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)

٢٧ـ أعيان العصر وأعوان النصر، ج٢، تحقيق علي أبو زيد، وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢٨ـ الوافي بالوفيات، أجزاء (٢: ٤، ٦، ١٠، ١٣، ١٧، ١٩، ٢٧، ٢٩)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)

٢٩ـ نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج١، ٣، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م .

أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد الأصبهاني (ت ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)

٣٠ـ معجم السفر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، (د.ت).

العليمي: مجير الدين أبو اليمن، عبد الرحمن (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

٣١ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

٣٢ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أجزاء (٧، ٨، ٩، ١٠)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، دمشق ١٩٩١ـ ١٩٩٣م.

الغزي: أبو البركات محمد بن أحمد بن عبد الله (ت٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م)

٣٣ـ بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندري، دار بن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)

٣٤ـ طبقات الشافعية، ٤ أجزاء، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٩٧٩، ١٩٨٠م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

٣٥ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أجزاء (٥، ١٠، ١١)، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤، ٢٠٠٥م.

الكفوي: أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء (ت ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م)

٣٦ـ كتاب الكليَّات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، ج١، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٨م.

أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤ هـ/١٤٧٠م)

٣٧ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج١، ٢، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٤م .

٣٨ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أجزاء (٥، ٧، ٩)، قدم له محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م .

المرداوي: أبو الحسن علي بن سليمان الدمشقي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)

٣٩ــ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ج٧، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

٤٠ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق ياسر صالحين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩م.

٤١ــ درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج١، ٢، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت ٢٠٠٢م.

٤٢ــ السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ٤، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٤٣ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٤ أجزاء في مجلدين، مكتبة الآداب، القاهرة (د. ت) .

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

٤٤ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، أجزاء (٣١، ٣٢، ٣٣)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)

٤٥ــ مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، ج٤، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

ثالثًا: المراجع العربية

إبراهيم بن محمد المزيني:

١ــ الحياة العلمية في العهد الزنكي، الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

جمال الدين الشيال:

٢ــ أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠١م.

حياة ناصر الحجي:

٣ــ صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.

سعيد عبد الفتاح عاشور:

٤ــ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢م.

طرفة عبد العزيز العبيكان:

٥ــ الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

عبد اللطيف إبراهيم علي:

٦ــ التوثيقات الشرعية والاشهادات في ظهر وثيقة الغوري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ١٩، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م

٧ــ من الوثائق العربية في العصور الوسطى؛ نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، مجلد ٢٧، الجزءان الأول والثاني، مايو، ديسمبر ١٩٦٥م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٩م، ومجلد ٢٨ الجزءان الأول والثاني، (التعليقات العلمية والمصادر) على نصيّ وثيقة الأمير صرغتمش، مايو، ديسمبر١٩٦٦م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١م.

علي محمد الصلابي:

٨ــ الدولة الزنكية، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٧م.

محمد أحمد دهمان:

٩ــ معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.

محمد عبد الستار عثمان:

١٠ــ نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

محمد قنديل البقلي:

١١ــ مصطلحات صبح الأعشى، نُشرت كملحق لكتاب صبح الأعشى (ج١٥)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

محمد محمد أمين:

١٢ــ الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ــ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ــ١٥١٧م "دراسة تاريخية وثائقية"، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠.

رابعًا: الأبحاث والدوريات والرسائل العلمية، العربية

أيمن شاهين سلام:

١ــ المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا ١٩٩٩م.

أيمن فؤاد سيد:

٢ــ المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" الذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية" والتي أعدتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة

وعُقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢- ٢٥ أبريل ١٩٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

جمال الدين الشيال:

٣ـ أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، مقال منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد (١١)، ١٩٥٧م.

زبيدة محمد عطا:

٤ـ مكتبات المدارس "خزانة الكتب" في العصرين الأيوبي والمملوكي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" ـــ سابق الذكر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

عفاف سيد محمد صبره:

٥ـ المدارس في العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" الذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م

خامسًا: المراجع والدوريات، الأجنبية

Al-Harithy (Howayda):

1-"The Four Madrasahs in the Complex of Sultan Hasan (1356–61):The Complete Survey", in Mamlūk Studies Review, VOL. 11, NO. 2, (2007), Middle East Documentation Center, The University of Chicago, pp. (49- 76).

Haarmann (Ulrich):

2-"Mamluk Endowment Deeds as a Source for the History of Education in Late Medieval Egypt", in al-Abhath/American University Of Beirut, Vol. 28, 1980, PP.(31- 47).

Ibrahim (Mahmood):

3- "Practice and Reform in Fourteenth-Century Damascene Madrasahs", in Mamlūk Studies Review, VOL. 11, NO. 1, (2007), Middle East Documentation Center, The University of Chicago, pp. (69: 84).

Lane Poole (S.):

4- A history of Egypt in the middle ages, London 1924.

Manjikian (Sevak Joseph):

5- Education and Training Under the Mamluks, Institute of Islamic Studies McGill University, Montreal, Quebec, (National Library of Canada) 1998.